زين

حكاية عتمة ونور

رضوى موسى - يوسف

الدار المصرية اللبنانية

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

زين

حكاية عتمة ونور

يوسف، رضوى موسى .

زين: حكاية عتمة ونور/رضوى موسى يوسف.- ط 1.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.

208ص؛ 20سم .

تدمك : 978 - 977 - 795 - 213 - 2

1- القصص الواقعية .

أ-العنوان . 083/813

رقم الإيداع : 2019/ 1875

©

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون : 23910250 202 +

فاكس : 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : 2019م

الدار المصرية اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

زين

حكاية عتمة ونور

إهداء

إلى سندي ..

الذي علمني أن أضحك للدنيا وأحبها وأعاندها .. أبي

إلى بطلي ..

الذي علمني معنى الحياة وغيَّر مفاهيمها للأقوى والأجمل .. ابني زين

إلى أول من علمني المسئولية وأدخلَ الحب إلى قلبي .. أخي

وإلى صديقي وشريك عمري وحبيبي وهدية الله في دنيتي الذي آمن بي وساندني وكان السبب الرئيسي لأي نجاح شخصي في حياتي .. زوجي

شكرًا يا رجالة

:)

التقديم

منذ سن مبكرة وأنا أُفضّل الكلمات المكتوبة على تلك المنطوقة. وكلما ضاقت بي الدنيا كنت أهرب إلى الكتابة، فهي الصديقة الوفية التي أجدها في وقت الحاجة. في الفترة الأخيرة انتابتني مجموعة من المشاعر المتناقضة في حياتي فاتجهت كعادتي إلى الكتابة، شعرت بالمسئولية تجاه ابني ونفسي، وأحسست أنني أدين لهما وللعالم بهذه القصة. ربما تكون قصتي بدأت مع رحلة السرطان المستنزفة والمجهدة.. ولكن من المؤكد أنها لم تنته هناك !

تأملت لفترة وتساءلت كيف ينبغي أن تبدأ هذه القصة وكيف تُحكى؟ هل أبدأ من طفولتي التي تعلمت فيها القوة والحكمة من أبي وأمي معًا، أم هل أذكر مواقف من حياتي كأم وزوجة، أم كابنة وشقيقة وصديقة؟ اخترت أن أحكي هذا الفصل من حياتي فقط، مع العلم أني أدين بالفضل لمختلف مراحل حياتي، التي ساهمت في ما أنا عليه الآن .

جوهر قصتي يؤكد فكرة أننا قد نخطط لحياتنا ما نعتقد أنه الأنسب لنا، ولكن الله وحده يعلم ما هو الأفضل لنا.. إنها قصة من الأمل والحب والإيمان والمكافحة والألم، ممزوجة بالسعادة والضحك والسعي المستمر لإيجاد السلام النفسي وتحويل كل شيء سلبي إلى شيء إيجابي. ربما لا تزال القصة مستمرة ولم تنته، لأن الله وحده يعلم ما يحمله لنا المستقبل. قد تكون الفكرة معقدة نوعًا ما ولكنها في جوهرها بسيطة! وهي أن بداخل كل منا القدرة على الاختيار.. ربما ليس بما تلقي به الحياة علينا، ولكن يكمن الاختيار في كيفية التعامل معها .

ربما اخترت في قصتي أن أقص وأحكي اختيارًا معينًا في وجه محنتي، ولكن حياتنا مليئة بالاختيارات، وكل يوم نعيشه هو حد في ذاته اختيار. لقد تعلمت أنه ليس هناك فوز أو خسارة، ولكن هناك اختيار المحاولة أو عدم المحاولة .

المقدمة

نحن لم نولد أقوياء! بداخل كل منا خاصية تمكننا وتدربنا على مواجهة الحياة. اعتدنا على الحكم على مقدرة الشخص في تعامله مع الحياة من خلال لونين فقط: الأبيض والأسود؛ إما سيتحمل وإما سينهار، لا يوجد حل وسط، أو لون رمادي. ولكن مَن وضع مقاييس القوة والضعف؟ مَن أملى علينا معايير الحكم والمقارنة بين مختلف الأشخاص في مواجهة مختلف مصاعب الحياة؟ نحن مختلفون منذ اللحظة التي خرجنا فيها للحياة؛ نشأتنا مختلفة، كل شيء مختلف: المفاهيم، والتقاليد، والمبادئ، والطباع، والقدرة على المواجهة والتحمل. مهما تشابهت القصص يظل الاختلاف بين الناس والذي تمليه علينا الحياة هو ما يضيف الطابع الخاص المنفرد لكل قصة .

نحن لسنا نتاج صدفة، إنما شخصياتنا هي نتيجة تدريب وتمرين مستمرين منذ اليوم الذي ولدنا فيه. مهما كانت الأسباب التي ساهمت في تكويننا اليوم، سواء الأهل ومحاولتهم وضع حجر الأساس، أو تفكيرنا الشخصي لتغيير وتطوير أنفسنا. في النهاية نحن لم نولد أقوياء، ولكننا ولدنا لنتمرن ونكون أقوياء .

لقد وجدت نفسي كطفلة داخل فقاعة جميلة، مليئة بالأصدقاء الصالحين، والأب الذي لم يدخر شيئًا ليبعد عني كل ما هو سيئ في الحياة، لكنه نفذ المعادلة المستحيلة؛ وهي أن يبعدني ويحميني من السيئ وفي الوقت نفسه يحضِّرني لمواجهته إذا شاء القدر. لم أدرك ما أخفاه أبي عني من مدى قبح الحياة خارج فقاعتي الجميلة إلى أن أصبحت أنا شخصيا امرأة ناضجة وأمًا مسئولة عن وضع المعادلة الصعبة نفسها داخل تفكير أولادي .

القوة والقدرة على الصمود صفتان بحاجة إلى التمرين المستمر، مثلهما مثل الرياضة والحياة الصحية، فكلما تحدد هدفي أصبحت خطواتي ثابتة ومحددة تجاهه. وكلما أدركت أهمية تنوع أشكال القوة ثبتت خطواتي وأتقنتها. أصبحت أتقبل إخفاقاتي، وأحتوي ضعفي وأستمر في محاولاتي لتحقيق النجاح الذي أرجوه في حياتي. كان التحدي في قصتي يتكون في مواجهة الإحساس بالعجز وقلة الحيلة! لطالما كنت قوية وصامدة في أي موقف في حياتي.. وجدت نفسي فجأة لا حول لي ولا قوة، وأنا أواجه اختبارا من أصعب الاختبارات. لقد وقفت قليلة الحيلة أمام ابني وفلذة كبدي، رأيته يقع فريسة لمرض

السرطان اللعين، ولم أملك القدرة على تغيير الواقع، أو حتى تقبله. ولكن بطريقة ما استطعت أن أجد بداخلي القوة على المواجهة والتعامل مع هذا الاختبار. واتخذت قرارا أني لن أسمح له بهزيمتي أبدًا! قررت أن أستغله في أن يجعل مني ومن أولادي شخصية أقوى .

السرطان كلمة في معناها صعبة، قادرة على خلق الخوف والحزن والضعف وفقد الإحساس كل في آن واحد وفورًا! وبالرغم من قوة دويّ هذه الكلمة، فقد كرهت حقيقة أنها ستجبرني على تعريفها في إطار محدد ومعين، وبالمقابل رفضت السماح للسرطان بتحديد هويتي. أليست الحياة معركة مستمرة هدفها معرفة الفائز في النهاية؟ أليس الهدف معرفة هل سيكون التحدي أقوى مني ويهزمني؟ أم سأتمكن من الصمود في الصعود والفوز؟

في استطاعتنا أن نخطط لحياتنا ونضع تصورا معينا للشكل الذي نريده لأيامنا، ولكن في النهاية نستسلم للخطة الأكبر الموضوعة لنا بعناية وحكمة لا نفهمها. هذه ليست قصة حزينة! أبدا! وهدفها ليس إثارة مشاعر الحزن أو الشفقة، في الحقيقة منظوري للقصة ولكتابتي لها ظل يتغير مع تغير الأحداث نفسها والحياة حولي بسرعة ولمدة خمسة أعوام متواصلة. ومع استمرار اختلاف رؤيتي للأحداث وفهم ما وراءها... ظل مبدئي واحدا «نحن نعيش حياة واحدة من الممكن أن تتغير في لمح البصر وبدون سابق إنذار»، مما يضيف علينا مسئوليات في أسلوب التعامل مع هذه الحياة سريعة النمط ومتقلبة المزاج. يجب أن نعيش حياتنا بكل تفاصيلها وبعد تحديد الأهداف. لقد نشطت بداخلي غريزة الأمومة منذ أول لحظة لي كأم، بل منذ لحظة اختبار الحمل وإعلانه أني قد تغيرت للأبد، منذ شعرت بأول فرحتي زين يتحرك بداخلي، منذ سمعت نبضات قلبه قبل أن أراه. علمت وتيقنت أني أريد أن أكون أما. وازدادت بداخلي القدرة على الحب والعطاء لطفل لم أره بعد! ولكن ما لم أتوقع حدوثه هو اختبار أمومتي، وقوتي، وشخصيتي ككل بكلمة واحدة! كلمة مدوية بصدى عنيف "السرطان "! لم أكن عمري أتخيل تسميتي بأم لمريض سرطان. وعندما بدأت مرحلة اكتشاف المرض، لم أكن أتخيل أني سأستطيع المواجهة بل وأنتصر! ولكني تعلمت أن المعركة ليست ضد المرض نفسه! ولكن المعركة ألا يفقد الإنسان هويته ونفسه في ظل الصراع النفسي العنيف والطاقة السلبية الناتجة من الصراع الدائم مع السرطان .

لقد أصبحت من أنا اليوم بفضل تجربتي التي ألهمتني وساعدتني أن

أشكِّل شخصيتي وكياني كأم لثلاثة أطفال، أكبرهم انتصر على هذا المرض اللعين أربع مرات بابتسامته، وألهمت قصته الآلاف حول العالم ليغيروا من أنفسهم ويغتنموا فرص الحياة وهداياها يوميا .

إن هدفي وحلمي وأملي أن تصل كلماتي إلى كل شخص يمر بتجربة قاسية -أيًا كانت-تمنعه من القدرة على المحاولة على الاستمتاع بالحياة، والصمود في وجهها. أتمنى أن تكون هذه القصة سببا إيجابيا في المواجهة والتحدي لكل ما تلقيه علينا الدنيا .

بداية الحكاية

"إن أفضل وأروع الأشياء في العالم لا يمكن رؤيتها

أو حتى لمسها.. وإنما فقط يمكن الشعور بها ".

هيلين كيلر

بضع لحظات قد تكون خطوة رئيسية لتغيير مسار حياتنا إلى الأبد. أتذكر على الأخص ليلة شتوية في شهر ديسمبر 2012 ، التي أصبحت أول خطوة في رحلةٍ لم أكن أتوقع أن تغير حياتي إلى الأبد، وطريقٍ لم أكن أعلم أن لديّ القدرة على المرور به .

لقد بدأت حياة جديدة بالولايات المتحدة، وبالرغم من تركي لعائلتي وأصدقائي بمصر، لكنني أبدا لم أترك الذكريات والمشاعر المرتبطة بهم. أتذكر جيدًا هذه الليلة الشتوية، التي بالرغم من مناخها المائل للبرودة ما زالت تبعث إحساسا بالدفء بداخل المنزل. ساعدني هذا الجو القريب من جو مصر، بالإضافة إلى طبيعة كاليفورنيا ونمط الحياة السريع، على التأقلم على الغربة بشكل أسرع. كما أنني أصبحت أما صغيرة في سن التاسعة والعشرين لطفلين، أولهما زين الذي لم يعد طفلا صغيرا بل بدأت علامات المهد والصغر تختفي، وطفولته تتبلور قليلا مع انتظامه في أول عام دراسي، وتعامله كرجل صغير يحمل حقيبة مدرسية تدل على كبر شخصيته ويقص شعره كأبيه باستمرار، وثانيهما صغيرتي ملك التي قاربت الخمسة أعوام من عمرها، هي تملأ دنيتنا بشخصيتها القوية، وآرائها المستقلة منذ اللحظة التي وصلت فيها للحياة .

في تلك الليلة، بدأت في إعداد وجبة عشاء خفيفة لي ولتامر بعد يوم طويل مليء بالأحداث مع الأولاد، وانتابني فجأة إحساس غريب كأنه مزيج من السعادة والخوف: السعادة لإحساسي بأن حياتي مكتملة عند سن التاسعة والعشرين؛ فأنا متزوجة وسعيدة بحياتي وأطفالي وزوجي. للحظة قصيرة أحسست بأنني خارج جسمي وأرى نفسي من زاوية بعيدة. أما إحساس الخوف فكان غير مفهوم، كان ممزوجا بانقباض غريب، ليست له دوافع محددة. وقفت مكاني لا أتحرك لوهلة قصيرة، ولكنها كانت كافية لتشد انتباه تامر .

التفت إليّ وهو على الأريكة يبحث عن برامجنا المفضلة على التليفزيون وتساءل : "في إيه، مالك؟ ". أدركت ساعتها أن هناك شيئًا ما يحدث بداخلي فقلت : "مش عارفة! بس حاسة كدة إن 2013 دي شايلالنا حاجة كبيرة هتغير حياتنا، مقبوضة منها مش عارفة ليه ".

تحرك تامر تجاهي، وكعادته حين يريد أن يطمئنني، أمسك يدي وبهدوئه بعث الثقة والطمأنينة إلى نفسي وقال : "بس يا ماما إحنا كويسين، خليكي متفائلة متسمحيش للخوف يتحكم فيكي ".

لم أستطع النوم هذه الليلة، وظل إحساس الأرق ينتابني طوال الليل، وفي الصباح بدأت أكتب على مدونتي المليئة بالكلمات المتناثرة : "حياتي جميلة وكاملة! عمري ما حلمت بحاجة تانية أكتر من اللي عندي دلوقتي بس مش عارفه ليه خايفة، وحاسة إن حياتي حتتغير إلى الأبد. عمري ما كنت بهتم بالماديات والأشياء. ودايما حاسة إني مش ناقصني أي حاجة حتى لو معنديش كل حاجة! اتعلمت في حياتي إن مفيش حاجة كاملة، الكمال لله وحده، والكمال هو فكرة ناتجة عن عقل كل شخص طبقًا لمدى رضائه، سعادته أو رغبته في الهروب من واقع حياته. متعودتش عمري أسمح لأي إحساس باستثناء إحساس السعادة إنه يتحكم فيا أو يسيطر عليا. لكن عندي إحساس غريب وغير مريح بالمرة، إحساس الهدوء الذي يسبق العاصفة، إحساس غير مفهوم بالتمهيد لتغيير شامل غير مسبوق لحياتي كلها. وأفضل أقول لنفسي.. ده إحنا عدينا بكتير! من أول حياتنا بتفاصيلها المرهقة وشغلنا اللي مشاكله مبتخلصش، وغربتي بعيد عن أهلي وناسي وأصحابي لمشاكل العيلة التي لا تنتهي. يمكن حياتي مش كاملة ولا جميلة، يمكن حياتي عادية وبس. لكن وبالرغم من كده، ومع بداية سنة جديدة قريب مش عارفة أسكّت الأصوات في دماغي وعقلي! ولا أسكِّت الإحساس الغريب بالقلق .

مدونتي.. ديسمبر 2012

لن أنسى هذه الليلة أبدا، فقد بدأ عام 2013 بعدها بأيام قليلة ليؤكد مخاوفي وإحساسي. بالفعل، كان عام 2013 يحمل مفاجأة كبيرة وغير متوقعة .

يناير 2013:

قررنا أنا وتامر إنشاء دليلنا الخاص ليرشدنا خلال تجربة الأمومة والأبوة

المليئة بالمفاجآت. سيكون لدينا نظام ثابت ولكننا سنتكيف مع أي تغيير. سنقوم بوضع القواعد، ولكن سنكون من المرونة الكافية لكسر هذه القواعد من الحين للآخر. سنكون صارمين مع الأطفال، مع ايجاد الوقت لاستمتاعنا بهما وبكل لحظة وخطوة في حياتهما. وضعنا نظاما كاملا هدفه أن نذكر أنفسنا أن أطفالنا ليسوا مجرد وظيفة أو مسئولية، ولكنهما هديتنا ونعمتنا التي أنعم الله علينا بها .

سارت حياتنا وفق ما خططنا لها، لم تخلُ من المشاكل ولكننا واجهناها، وأصبح أسلوب حياتنا أن نتوقف من الحين للآخر لنستمتع بملك وزين وتفاصيل يومهما. أحببت حياتي، وأدركت مدى عمق وجمال كل لحظة فيها، وبالرغم من أي صعوبات في الطريق لم تجد الشكوى طريقها لأسلوبي ولا عقلي .

اقترب شهر يناير على الانتهاء ساحبًا معه فصل الشتاء القصير، وحان وقت الاستمتاع بقرب انتهاء أول عام دراسي لزين، والاستعداد لملك أن تشارك أخاها في المدرسة. بدأت الشمس في الظهور يوميًا مرة أخرى منيرة جمال التفاصيل التي أراها يوميا في أولادي. ابتسامة زين وشعره الغزير حول وجهه المبتسم، دائمًا يلعب مع ملك بضفائرها القصيرة وضحكتها وشخصيتها التي تملأ أي مكان تتواجد فيه .

اقتربت خطوة مهمة في حياتي وهي عامي الثلاثون، كنت أميل إلى الحركة الدائمة والانشغال بمشاريع مختلفة وكنت سعيدة بإيقاع حياتي المزدحم الذي حدده الله لي. كانت حياتي سعيدة ومستقرة ما بين العمل وجدولي الشخصي ويوم الأطفال المزدحم دائمًا بالمدارس والتدريبات الرياضية والموسيقية وغيرها. كان الجدول مزدحما ولكنه يتسع ليشمل الجميع، ولم يكن يومنا بلا أخطاء ولكنه كان رائعا .

حياتي لم تكن مختلفة عن باقي الأمهات في مثل عمري، ولكني وصلت إلى مرحلة من التيقن والإدراك جعلتني أشكر الله يوميا، على القدرة على التحكم في تفاصيل الحياة الصغيرة. كنت أظن أني وصلت إلى مرحلة من الشكر والرضا المستمرة يوميًا، ولكني عندما أتذكر هذه المرحلة من حياتي أدرك أني كنت مخطئة! ربما لم أكن أشتكي من مشاكل الحياة المستمرة اليومية، ولكن إدراكي بنعم الحياة لم يكن بالعمق الذي ظننته. إنه خطأ الإنسان الأبدي في ميله إلى التركيز على مشاكل الحياة بدلًا من نعمها وجمالها، على فقدان الإحساس بالتقدير للتفاصيل حولنا بسبب ضغوط الحياة وسرعتها. فقد نظن أننا

شاكرون، ولكننا في الحقيقة غير مدركين لمدى قوة اللحظة التي نملكها وإمكانية تغييرها تغييرا جذريا في غمضة عين .

بالرغم من سماعنا لقصص مَن حولنا وكيفية تحول الحياة سريعًا من وضع لآخر، لكننا لا نستطيع أن نتخيل أنفسنا في وضع آخر مختلف عما نحن فيه. نسمع قصص الطلاق والمرض والموت وكأنها لن تحدث لنا أو نقترب منها .

كنت من ضمن هؤلاء الناس الذين يظنون أنهم يعيشون في عالم آخر لا تقربه المشكلات الكبيرة ولا تتغير حياتهم من شكل إلى آخر. ولكن الله والحياة أثبتا أني كنت مخطئة !

في صباح أحد الأيام قمت لإعداد الإفطار للجميع، بعد ليلة أخرى مرهقة بلا نوم مليئة بالحرارة المرتفعة، وآلام مبرحة في القدمين مع زين. دخل زين المطبخ مبتسمًا وقال : "ماما أنا كويس دلوقتي، عايز أروح المدرسة ".

أنا : " زين أنت منمتش ساعة على بعض من وجع رجليك " ، قاطعني بصوت عال، وهو يقفز في مكانه : "لا يا ماما أنا كويس حتى بصي.. ها نا دول ست نت " ، وبدأ العد باللغة الكورية، كما تعلم في تمرين التايكوندو، وبالرغم من سنه الصغيرة، لكني رأيت في عينيه نظرة تحمل المسئولية ورغبته في أن يطمئنني. كنت أعرف أنه ليس في أحسن أحواله، ولكني رفضت أن أصدق أنه يقاوم. لم يكن مبدأ المقاومة يطرق إلى بالي في تلك السن الصغيرة، ولكنه كان بالفعل يقاوم. تكررت الأحداث والآلام وزيارات الدكتور وكأن اليوم يعيد نفسه! ظللت أسمع التفسير غير المنطقي لحالته، فلم يكن منطقيا لي أنه بخير، وأن ما يمر به ليس أكثر من أعراض تقلب الجو أو دور برد! وبينما هو في آلامه ظلت معنوياته مرتفعة، وابتسامته تزيد حيرتي ورغبتي في الفهم أكثر .

فبراير 2013:

عاد تامر إلى غرفتنا في منتصف الليل بعد جلوسه مع زين في غرفته، محاولة منه في تخفيف آلامه غير المفهومة. انتابني القلق فعدت لأطمئن على ملك وزين وأمرر يدي في شعره الكثيف فوجدت زين غارقًا في عرقه كأنه توه انتهى من الاستحمام! أفقته من النوم لتغيير مناشف وملايات السرير وعاد إلى النوم وهو ينظر بعينين نصف

نائمتين ويبتسم. نظرت إلى عينيه ورأيت ما لم أود أن أراه في هذه الليلة! رأيت نظرة وقصة أعمق من الواقع، وددت أن أطمئن نفسي بأن كل شيء على ما يرام، ولكني لم أستطع! كانت نظرة عينيه عميقة ومليئة بالكلام، وظلت الأصوات في عقلي تؤكد لي أن شيئًا أكبر منا في الطريق إلينا. لم أفهم هذا الإحساس، ولكن حيرتي تحولت إلى عزيمة، وقلت في نفسي أن غدًا قادم وسوف أصل إلى إجابات بشكل أو بآخر! سأفهم هذا اللغز الذي ينتابنا وسأفهم ماذا يحدث لزين .

الشعور بالخطر قبل حدوثه واحد من ضمن الصفات الخاصة التي تُمنح عند التوقيع على عقد واتفاق الأبوة والأمومة. تأكدت من أن «إحساس الأم» أصدق من أي شيء، تأكدت أن الأم تفهم أولادها من نظرة واحدة، تعرف ما يعانونه دون كلام، مجرد نظرة واحدة تستطيع أن تستشعر الخطر أو المشكلة. جلست في غرفة زين أنتظر طلوع الشمس بفارغ الصبر كي أطمئن وأسكت أصوات عقلي التي طالما كانت معي طوال حياتي، وتعودت عليها لتساعدني في مختلف المواقف. لم تحضر الأصوات هذه المرة لاتخاذ قرار أو لتثبت شخصيتي وتؤازرني في التعامل مع موقف ما، بالعكس جاءت هذه الأصوات هذه المرة لتقلقني وتضيف الخوف إلى قلبي. جاءت لتفرض عليّ أن أستجيب لندائها .

في غمضة عين

"يجب أن نركز على الضوء

في أحلك اللحظات ".

أرسطو

كنت أتأرجح بقوة داخل سيارة على الطريق السريع، جالسةً على مقاعد غير مريحة، وضوء الفلوروسنت الأبيض في عيني يجبرني على الاستيقاظ، لم أدرك أنها سيارة إسعاف إلا بعد أن شعرت بيد حنون تربت على كتفي وسمعت صوت المسعف يقول : "أنا آسف إنك بتمري بده! إن شاء الله تعرفي إجابات بسرعة " ، لم أرد، إذ كانت عيناي مركزتين على جسد زين الضئيل المربوط بأحزمة على سرير صغير أمامي بداخل السيارة. عجز عقلي عن الفهم وتساءلت: أين أنا، وكيف وصلت إلى هنا؟ ولماذا ابني مربوط هكذا؟ إلى أين يأخذوننا؟

نظرت على الطريق خارج السيارة لأجد تامر في سيارته يتبعنا عن قرب، وبالرغم من ظلام الليل قبل الفجر وتعبنا الشديد لعدم نومنا لما يقرب من الـ 24 ساعة، استطعت أن أراه بدقة، رأيت نظراته الصارمة

لا تفارق سيارة الإسعاف وتركيزه علينا بداخلها. رأيته كالوحش الخائف المستعد للهجوم، ولكنه حائر على من يهجم! رأيت نظرة في عينيه لن أنساها أبدًا؛ نظرة خوف ممزوجة برغبته في أن يطمئنني بأن كل شيء سيصبح على ما يرام .

طالما سمعت تعبير "في غمضة عين " ، ولكني أبدًا لم أكن أتخيل أني سأستخدمه للتعبير عن موقف خاص بي أو أحد أفراد أسرتي، كل شيء تغير بسرعة وعنف، وأصبحنا بعيدين كل البعد عن أي شيء طبيعي. منذ أقل من 24 ساعة فقط ذهبت إلى عيادة الطبيب أطلب إجابات عما يمر به زين، حاربت لأطالبهم بإجراء تحاليل وفحوصات ظنًا مني بأن ابني عنده فيروس ما غير مفهوم. وما ظننته رحلة عادية إلى غرفة الطوارئ بسبب وعكة وحرارة غير مفهومة أصبح أول خطوة في رحلتنا الطويلة مع وحش السرطان .

في ليلة واحدة، رأيت أشخاصًا ولكن بلا وجوه! كنت مدركة أنهم يتكلمون عن زين، ولكنني لم أستطع أن أرى وجوههم، أو أميز

ملامحهم أو أصواتهم. كانوا كلهم أغرابا حولي، يلمسون ابني ويخرجوننا من سيارة الإسعاف ليأخذونا إلى غرفة في المستشفى. منذ 24 ساعة فقط كنت في منزلي مع أولادي أتصفح وصفات الطعام، أحضر الغداء وأطبع أوراق تلوين إعدادًا ليوم طبيعي. ولكن بشكل ما وجدت نفسي محاطة بأشخاص لا أعرفهم، كل منهم يحمل لقبا ووصفا طبيا منفصلا ويتحدثون بلغة غريبة، لم أكن مستعدة لسماع مفرداتها : "ابنك مصاب بالسرطان، شفنا الورم، هناخد عينة خلال عملية عشان نعرف خطوات العلاج "! هل قالوا بالفعل أن ابني وأول فرحتي، ذا الخمس سنوات ونصف، هذا الطفل المبتسم دائمًا بوجنتيه المليئتين بالحيوية، وشعره الكيرلي الغزير، مصاب بالسرطان؟! احتميت بتامر، والتصقت به، وعلى الرغم من أنه كان يسمع ما أسمع فإنه ساعدني على احتمال الخبر وتمكنت من سماع الكلام كاملا. أثناء شرحهم شعرت بأمعائي تتفت بداخلي، وآلام مبرحة في كل جزء في جسمي في آن واحد. تمكن منا الخوف وعدم التصديق لما نسمعه مني أنا وزوجي، بعد انتهاء التقرير الطبي علينا استسلمنا لدموعنا وللانتظار! انتظرنا عودة زين من أول عملية له في حياته، عملية استخراج عينة لمعرفة حجم ما نواجه. وبعد ساعات قليلة، وجدت نفسي أمشي بجانب سريره والطاقم الطبي يأخذه إلى غرفته، وهو مستغرق في النوم تحت تأثير البنج. مشيت ببطء، ولم أعد أستطيع سماع أي من الأصوات حولي مرة أخرى. عم الصمت في عقلي ورأيت أصدقاءنا وأفراد عائلتنا بعد معرفتهم بالخبر يبكون ويتساءلون ويتكلمون، جررت قدمي وجلست أنظر إلى فلذة كبدي نائما في وسط هذا السرير الأبيض القبيح محاطا بالعديد من الأجهزة الطبية. اقتربت ببطء ودفعت الأنابيب الخارجية من جسده بلين، وأغمضت عيني ودعوت وصليت .

تكلمت مع الله كأنه بجانبي، قلت له أني خائفة مرعوبة ولا أعلم ماذا أفعل. اعترفت له بحيرتي في كيفية إخبار ابني أو التعامل مع الموقف. قررت أن أغمض عيني وأنام، أردت أن أكون بجانبه، أسمعه يتنفس.. كانت هذه أول لحظة سلام منذ يومين. كان النوم هو هروب من الواقع والحقيقة نوعًا ما. عندما فتحت عيني شعرت كأنها مجرد لحظات قليلة مرت، واكتشفت أني ما زلت بالمستشفى. وتلاشى الأمل بأن كل هذا كان مجرد كابوس سخيف، ورأيتها واقفة على الجانب الآخر من السرير بمعطفها الأبيض تضغط بسماعتها الطبية الباردة على جسد زين بدون استئذان أو تنظر إليّ. قالت الدكتورة X بدون مقدمات : "أظن دلوقتي عرفتي مدى خطورة نوع السرطان ده وفرص النجاة منه قد إيه ضئيلة، مش كدة؟ ".

وبينما أنا نصف نائمة طلبت منها بإشارة من يدي أن نكمل كلامنا بالخارج، بعيدًا عن زين لأنه ما زال غير مدرك لخطورة الموقف .

فردت الدكتورة X دون أن ترفع عينيها عن الأوراق : "مهو حيسمع كلمة سرطان حواليه عادي. المفروض تبدأي تستخدميها ".

تحرك جسمي أسرع من عقلي في هذه اللحظة، ووجدت يدي تمتد فوق جسد زين إلى ناحيتها من السرير، وأشد سماعتها الطبية بقوة بينما أدفعها بعيدًا عن جسد ابني. سيطر الغضب الذي انتابني فجأة على نبرة صوتي، وقلت بهدوء مخيف : "ابعدي حالًا عن ابني ومتلمسيهوش! اخرجي برا الأودة ".

كان تعبي وآلامي في هذه اللحظة أكثر مما مررت به في غرفة الولادة وأنا أخرج زين من جسمي، ولكن تعبي لم يكن بالقدر الكافي لأنسى من أنا! أنا نتاج أب وأم قويين علّماني ألا أتقبل أي إهانة أو معاملة سيئة من أي أحد. علّماني كيف أدافع عن نفسي بأدب، وبطرق أخرى إذا استلزم الأمر ذلك! وفي هذه اللحظة لم ألتزم الأدب أو الذوق أو الصبر، ولكن انتابني الغضب وظهر في كل أرجاء جسدي ووجهي، وأنا آمرها بأن تبتعد عن ابني. بان وجه الطبيبة ممزوجا بالحيرة وابتعدت ببطء وخرجت من الغرفة تنتظر بالخارج. ذهبت إليها وكان معي تامر، وبدأنا نستمع إلى نبرة صوتها المملة البطيئة الخالية من أي مشاعر، تردد إحصائيات وأرقاما : "حيكون عيان أكتر ما حيكون كويس، سرطان الخلايا الجذعية مرض خطير وعلاجه عنيف ومعظم الأطفال مبيستحملوش العلاج وبيموتوا ". بيموتوا؟! هل استخدمت كلمة الموت بالفعل، وهي تصف لنا خبر مرض ابننا؟ هل قررت أن تجردنا من أي ذرة أمل ممكنة؟ وفجأة بدت أطول وهي تواصل حديثها، وشعرت أنا بآلام مبرحة في ركبتيّ. كنت أراها تتكلم شفتاها تتحركان ولكني لا أسمع شيئًا، وكأني أصبحت صماء لم أستطع تمييز أي شيء تقوله .

سحبت نفسي من الأرض، ووقفت بصعوبة بعدما نجح كلامها في الإطاحة بي حرفيًا! شعرت بكل سنوات عمري في لحظة واحدة، عندما تركت عائلتي الكبيرة وبدأت عائلتي الصغيرة، سنوات أعطيت فيها كل قلبي لكائنين صغيرين يقولان لي "ماما " ، سنوات كافحت فيها مع زوجي وعملت بجد لجعل عالمنا منطقة آمنة خاصة بهما. قيدتُ نفسي بآداب الحديث مرة أخرى لوضع كل ما عندي من المشاعر المتدفقة في الكلمات، بدلًا من لكمة في وجهها المحروم من

المشاعر والإنسانية. ضغطت على صوتي ولم أنجح كثيرا في جعله هادئًا وقلت : "كده كفاية! انتي قلتي كفاية! اسمعيني بقا كويس حتى لو نسبة النجاح والنجاة 20% بس حاخدها، ولو 2% برضو حاخدها، لو صفر في المية ابني حيكون الاستثناء! بس إنتي ملكيش أي حق تقفي قدامنا وتعيدي في حقايق من كتب، وتقوليلنا إن ابننا حيموت! ملكيش أي حق تقوليلنا إيه اللي حيحصل! ومن دلوقتي ملكيش أي حق تكوني موجودة هنا! لو حنمشي في الطريق ده من غير ما نفهم ولا نعرف أي حاجة... أنا عارفة حاجة واحدة بس وهي إن ابني حيكون معجزة! حتشوفي!.. لا حتسمعي لأنك مش مسموحلك تكوني جزء من المعجزة دي. إوعي أشوفك جوه أودته ولا تقربي منه! إنت من اللحظة دي برا حياتنا للأبد. اعتبري نفسك مرفودة ومش عايزة أشوف وشك تاني !".

لحظة علمي بسرطان ابني كانت كافية للقضاء عليّ لكن "غريزة الأم وقدرتها المستميتة على الحماية " غالبًا كانتا السبب في إمدادي بالقوة في هذه اللحظة لأني في الحقيقة كنت في أضعف لحظات حياتي نفسيا وجسديا! لم أنتظر ردها ومشيت وتركت الكل خلفي، لم أستطع رؤية تامر في حالته هذه، ولم تكن لديّ رغبة في أن أسمع كلمة واحدة أخرى منها. ظللت أردد آيات من القرآن بينما كنت أصعد وأهبط وأمشي في ممرات المستشفى. حاولت بقدر الإمكان التمسك بإيماني واللجوء إلى الله، كانت الوجوه والأماكن والأضواء حولي كلها غائمة وغير واضحة. سقطت على الأرض بجانب نافذة زجاجية ونظرت إلى الخارج لأرى شيئًا واحدًا واضحًا وصريحًا، وهو أني

لا أملك شيئًا بيدي! وأن كل شيء بيد الله وحده. أنا ضعيفة، ومتعبة، وعاجزة، وخائفة، وغاضبة. أنا غاضبة جدًا! هذه هي معركتي، معركة حياتي التي لم أختر أن أقاتلها، المعركة التي طالما تم إعدادي لها كل حياتي. أغلقت عيني واتجهت نحو الجدار وسمعت الأصوات في رأسي تهمس : "ريحي دقيقة وقومي بسرعة، السرطان مش حيستناكي! المعركة مش لسه حتبدأ.. المعركة بدأت بالفعل !".

لم أستطع الراحة حتى إذا أردت، مهما آخذ غفوة وأرتاح قليلًا كان عقلي يرفض أن يتوقف عن التفكير. في طريقي إلى غرفة زين ظللت أفكر في مدى استعدادي لهذه المرحلة من حياتي، الصدمة شلّت عقلي عن التفكير والتخطيط، علمتُ أني لست مستعدة لاتخاذ أي قرار، بدأت تدريجيا أعيد ترتيب المشهد، سأبدأ بالحقيقة المؤكدة، أننا

نواجه المرحلة الرابعة والمتأخرة من السرطان بعد أن سيطر على كل جزء من الجسم وكل نقطة دماء، كنت أحاول على قدر الاستطاعة أن أبعد كل البعد عن فكرة الموت، فقد ارتبط مرض السرطان بالموت ولطالما كرهنا أن نكرر اسمه أو نشاهد إعلان علاجه في التليفزيون، كان من السهل أن نتجنبه تمامًا في حياتنا اليومية في الماضي، ولكن الوضع تغير وأصبح السرطان جزءا لا يتجزأ من حياتنا. وبالرغم من أن عقلي لا يزال يرفض هذه الفكرة، أصبح فمي يرددها !

جلست أفكر في كل هذا بجانب فراش زين، عندما سمعت صوت تامر يدخل الغرفة ومعه ملك. طلب من الجميع الانتظار في الخارج ليتكلم معنا على انفراد وبحرية. جمعنا حوله في لحظة جمعت ما بين أقوى وأضعف لحظة لنا كعائلة في آن واحد. تكلم وصوته يعبر عن الخوف والعزيمة سويًا قائلًا : "أنا عارف إنتو خايفين ومش فاهمين، أنا كمان لسه مش فاهم قوي بس مش خايف! عشان إحنا حنقاوم سوا وحنقف مع بعض وحدة واحدة. لازم ده يبقى تفكيرنا.. أنا عارف إنك قلقانة يا ملك بس أوعدك إننا مش حنخبي عليكي حاجة، وعارف إنك خايف يا زين بس أوعدك إنك مش لوحدك أبدًا وإننا كلنا معاك " تكلم بعينين مليئتين بالدموع، وصوت مهزوز ولكنه مليء بنبرة ثقة.. فقد كانت رحلتنا قد بدأت بالفعل .

دخل الممرض مع ملف سميك من الأوراق التي تسرد الآثار الجانبية لكل من العلاج الكيميائي والإشعاعي، لم أستطع أن ألمس الأوراق ناهيك عن قراءتها! سمعته يقول : "خذي وقتك في قراية الأوراق دي، بس أنا محتاجك تمضيلي على قرار نقل الدم لأن نسبة الهيموجلوبين قليلة جدًا ومحتاج نقل دم عشان كده لونه رايح وتعبان ". ظلت نظرة الحيرة على وجهي كلما وجه لي أحد الكلام، بدت القرارات أكثر عمقًا. وبينما تتدفق نقاط الدم من الكيس المعلق بجانبه إلى جسده المنهك من المرض، رأيت لون الحياة يعود في وجنتي زين، وعلمت في هذه اللحظة وأنا أسمع صوته وأرى لمعة عينيه تعود أن كيس دم يساوي حياة. وبدت هذه اللحظة قصيرة، وأنا أعود نفسي على رؤية كيس من نوع آخر، كيس الكيماوي اللعين الذي بدأ يتدفق سريعا بعد كيس الدم. أغمضت عيني وتذكرت ماذا قالت الدكتورة M ، أن طريق الشفاء يتخلله الكثير من التعب والمرض. قالت لي إن كيس الكيماوي سيبعث الأمل إلى قلبي عندما أرى زين يتحسن وآلامه تذهب. لم أكن عمري أتخيل أني سأواجه مثل هذه القرارات، فبدلا من اختيار ملابس جديدة وأماكن للعب وزينة تورتة عيد الميلاد وجدت نفسي أحزم أمري وأتخذ

قرارات مثل كيس الدم والكيماوي السام .

بينما جلست أراقب نقاط الكيماوي وأنا أظن بسذاجة أني سأرى كتل الشعر تقع في التو واللحظة أو أن علامات القيء ستبدأ سريعًا، سمعت صوت الدكتورة M تدخل الغرفة وعلى وجهها ابتسامة عريضة مليئة بالأمل، سبحان الله، لقد تغيرت الأحوال والقدرة على اتخاذ القرارات في أحلك الظروف! التغييرات الجذرية في حياتي ليست بالكثيرة، ولكن من أعظمها تلك اللحظة التي تركنا فيها المستشفى الأول وطاقمه الطبي وعلى رأسه الدكتورة X وألهمنا الله أن نذهب إلى مستشفى آخر، ليس بحثًا عن وعود كاذبة ولكن عن الأمل! الأمل في أن يكون ابني هو استثناء القاعدة، في أن يكون ابني معجزة، وأن يكون كل من القائمين على علاجه جزءا من هذه المعجزة .

سرحت لثانية بينما كانت الدكتورة M تكشف على زين ونظرتُ إلى السقف الملون لغرفة المستشفى البيضاء. رأيت لوحا صغيرة ملونة مرسومة من قبل الأطفال المرضى هدفها جذب انتباه المريض، بينما هو مستلق على الفراش يتلقى العلاج. نظرت إلى الدكتورة M وكأني أستجديها لأي بارقة أمل قائلة : "ده بطل تايكوندو، كان بيتدرب كل يوم عشان ياخد الحزام الأحمر ". نظرت إليّ مبتسمة وقالت : "واحنا حنعمل كل حاجة عشان نرجعه يتمرن تاني " ، قالتها بكل سهولة وبعثت الأمل والحياة إلى روحي مرة أخرى! كان الأمل هو كل ما احتجته في هذه اللحظة! كانت الدكتورة M مثل النور في آخر طريق مظلم، لم تعطنا وعودا كاذبة أو لونت الحقيقة المرة، ولكن أعطتنا الأمل الممزوج بالحقائق وقصص النجاح والشفاء التي قد تبدو ضئيلة وقليلة، ولكنها كانت قشة النجاة التي تعلقنا بها .

أصبح السرطان حقيقة الآن، وبالرغم من كرهي لهذه الحقيقة ورغبتي الشديدة في إنكارها، ولكنها فرضت عليّ من قبل الحياة. إن حلم النجاة وتغيير نهاية القصة إلى الأفضل هو الآن هدف يجب أن أسعى لتحقيقه. حكمة الله في ترتيب الأحداث بداية من تحطيم آمالنا أولًا عبر الفريق الطبي الأول، ثم انتشالنا وإعطاؤنا بصيصا من الأمل كان السبب في شحن معنوياتنا وتجهيزنا لمعركة العلاج والسرطان .

الفيل الأبيض في الغرفة

"الابتسامة هي أفضل وسيلة لمواجهة كل مشكلة

ولسحق كل خوف ولإخفاء كل ألم ".

ويل سميث

إن قدرات العقل البشري متواضعة جدًا، وضعيفة في بعض الأحيان، فبالرغم من مظاهر قوته في مختلف مواقف الحياة الطبيعية كغرفة الاجتماعات في العمل مثلًا، أو اجتماع أولياء الأمور في المدرسة أو تخطيط الحياة بكل خطواتها، لكنه يقف عاجزًا في ظل مواجهة الصدمات، يسمع ولا يفهم ولا يستوعب. كلما اتخذنا خطوات جديدة في معركتنا ضد السرطان، أصبحت الرؤية أكثر وضوحًا بالنسبة لي أننا نتحرك، ونمشي، ونتحدث ونحزم حقائبنا ذهابًا وعودة من المستشفى، ولكن بدون أن نشعر بأي من واقع حولنا في كل ذلك! كنا فقط عائشين على قيد الحياة! إن حياتنا في مجملها مجموعة من التفاصيل الصغيرة والدقيقة المترابطة والتي تكون النسيج والصورة الأكبر لأسلوب وهدف حياتنا .

إذا توقفتُ لحظة وقارنت بين الحياة قبل وبعد مرحلة الأمومة، سأجد اختلافا شاسعا في التفاصيل! فقد اختلفت اهتماماتنا لتشمل تحضير الوجبات الصحية اليومية في المدرسة، والمتابعة الدورية مع المدرسين ومزيدًا من التخطيط يتخلله الكثير من التفاصيل المتغيرة دائمًا والملمة بحياة الأولاد والوقفات الدائمة مع النفس لتطوير أنفسنا والمحاولات المستمرة في التوفيق بين كوننا آباء وأمهات بقوة خارقة وكوننا أشخاصا عاديين. وفي ظل كل هذا تأتي لحظة لم يتوقعها أي أب وأم، لحظة لم يتم التحضير لها أو التخطيط أبدًا! عندما تتوقف القدرة الخارقة ويصبح الجسد مرهقا ومتعبا، ويصبح العقل وكأنه مخدر، والعينان ذابلتين، وتتوقف الأذن عن السمع، بينما تحاول العينان أن تقرأ الكلام على الشفاه المتكلمة. تقسمت الحياة إلى مرحلتين: قبل وبعد المرض واختلفت التفاصيل من تحضير وجبات المدرسة لتحضير أدوات تعقيم وحقن وأدوية، ومن طبع أوراق تلوين ودراسة لطبع مواعيد زيارة طبيب والبحث اليومي على الإنترنت عن قصص نجاح وشفاء بحثًا عن الأمل .

أصبحت الحياة "قبل السرطان " و "بعد السرطان ".. وأصبح السرطان.. الفيل الأبيض في الغرفة! الشيء الكبير الذي نراه ولكننا ننكر وجوده، نجد آثاره حولنا ونفشل في تجنبه. أصبح السرطان هو الموضوع الوحيد أينما كنا، مثل الغيم أو الشمسية الملتصقة فوق رءوسنا تحجب أشعة الشمس أو البهجة. أصبح الموضوع الوحيد المسموع حتى لو لم نتحدث فيه. ثم يجيء الله بعظمته في ظل كل هذا ليرينا قدرته في أحلك الظروف من خلال أناس اعتبرناهم غرباء، ولكنهم توحدوا وجاءوا إلى نجدتنا نفسيًا ومعنويًا حين نحتاج هذا الدعم. أرانا الله عظمته في طاقة الحب والعطاء التي تمثلت في مختلف الأشكال، مرورا بكلمات الدعم إلى تحضير الوجبات للمساعدة في الأعمال المنزلية أملًا منهم في أن يخففوا الابتلاء، وفي ظل صدمتنا من البعض واختفاء من ظنناهم أصدقاء.. استمرت عظمة الله لتؤكد أهمية الحفاظ على لحظات الحياة القيمة والاستمتاع بكل النعم فيها. فوجئنا برد فعل جميل من جميع الناس الذين سمعوا القصة، فقد لمست القصة العديد من داخل وخارج دائرة معارفنا مما بث الأمل والدفء إلى قلوبنا كلما سمعنا عن مجموعة تصلي أو تجتمع في الخير بنية شفاء زين. إن صدمة المرض العنيف في هذه السن الصغيرة هزت الكل وجعلت العديد من الأهالي يدركون أهمية الوقت مع أطفالهم، أدركوا أن سباق الحياة ممكن أن يتوقف في لحظة وأن غدًا بالفعل ليس مضمونًا .

لقد تم اختيارنا.. لنمثل درسا وعظة من الله للجميع بطريقة بسيطة ولكن بصدى أقوى. فقد أصبح حتميًا أن أغير مدى تقبلي للأطباء والذين طالما كرهتهم طول حياتي، فشئت أم أبيت سوف أعيش في المستشفى أكثر من منزلي. تقبلنا سريعًا فكرة ترك المنزل الجميل المريح كثيرًا وتشوقنا لنهاية كل مرحلة من العلاج لكي نعود سريعًا ولو لأيام قليلة ولكن سويًا إلى منزلنا. فرض النظام نفسه سريعًا بعنف ولم يكن لدينا أي خيار آخر. تغير نظام حياتنا سريعًا وأصبحنا في وضع استعداد دائم، تعودت أن أحضر حقيبتين في كل وقت، ففي حالة أي طوارئ لا يصبح الوقت في صالحنا. تعودت على روتين معين كلما عدنا إلى المنزل بعد خطوة علاج أو إقامة في المستشفى .

أقف أمام غسالة الملابس في صمت أفكر وأسرح.. أصبح غسيل الملابس الملاذ الرومانسي لي كي أتخيل أني معه أغسل أي ذكريات سيئة أو لحظات مؤلمة. ملابس زين تُغسل منفصلة وفي كل مرة أحاول أن أتغلب على رائحة الكيماوي الكريهة المتعلقة بملابسه ولكني لم أستطع! رائحته قوية، نفاذة تبعث الحزن إلى قلبي وتذكرني

بمدى كرهي لها وعدم ترحيبي بها في حياتنا. رائحة الكيماوي مثل رائحة الطفولة المسروقة والأيام الموجعة والتفاصيل السيئة من العلاج.. في كل مرة كنت أفرغ فيها الحقيبة بداخل غسالة الملابس كنت أدعي وأصلي في صمت. كنت أنظر إلى هذه الملابس والمياه تغمرها ورائحة مسحوق الغسيل تمحو رائحة الكيماوي الكريهة وأدعو.. أدعو الله في صمت أن يغسل جسده من خلايا السرطان، وأن يجعل الكيماوي في أشد حالاته كي يقضي على المرض بقوة وعنف إلى الأبد .

بنيت قصصا قصيرة رومانسية في خيالي، أن خلايا السرطان تسمعني وتسمع دعائي وأنها ستستسلم أمام إرادتنا ورغبتنا في القضاء عليها. تخيلت أن حديثي لملابس زين سوف ينتقل إلى جسده، وأن ملابسه ستخبر خلايا السرطان برسالتي وبقوتي حتى تستسلم وتتلاشى إلى الأبد. وأصبحت عادة أن أضيف عطرا معينا للغسيل يساعدني على تذكر منزلي الجميل ورائحته الطيبة كلما ذهبت إلى المستشفى. أصبحنا نغسل همومنا وقلقنا وحزننا كلما عدنا إلى المنزل، ونخدع عقلنا كلما ذهبنا إلى المستشفى .

بينما أنا سارحة أنظر إلى المياه تتدفق على الملابس سمعت خطوات صغيرة من خلفي ونظرت لأراها بعينيها الضيقتين وخديها المليئين تمد يديها بشيء ما وهي نصف نائمة وتقول : "خدي يا ماما، أنا لونت كيس المخدة ده عشان تخديه معاكي المستشفى ويفرحك إنتي وزين لما تبقوا هناك " ، قالتها ببراءة وأعطتني كيس المخدة المفضل لديها وعادت إلى غرفتها الملونة باللون الزهري ونامت في سريرها وهي تحتضن عرائسها. رأيتها تعود إلى النوم بعمق، واعتصر قلبي وأنا أرى صغيرتي تكبر قبل أوانها، فمهما أجدنا النظام ومهما حاولنا التوفيق بين وجودنا معها ومع زين فقد كان قلبي يتألم في كل مرة أتركها فيها. وكان الحال بالمثل عندما أترك زين، لذا قررت أنا وتامر أن نتواجد لهما على السواء. فبينما أنا مع زين في المستشفى كان تامر مع ملك يخرجان ويستمتعان بوقتهما سويًا، وعندما يحين موعدي أن أعود لأكون مع ملك كنت أترك قائمة من الألعاب والأفلام وجدول الأدوية لتامر ليعرف جدول زين ويتأقلم سريعًا .

وقفت بين غرفتيهما أنظر إليهما وطفولتهما تنام ليلًا، وسرحت كيف تكون أحلامهما، هل يحلم زين بالشفاء؟ هل تحلم ملك بالاستقرار مرة أخرى؟ هل أجدنا فن الأبوة والأمومة وتقسيم أوقاتنا بينهما حتى لم

يعودا يشعران بأي فرق؟ دخلت إلى سريري طالبة الراحة ولو لوقت قليل، الراحة من الضغط، من التفكير، من القيادة من وإلى المستشفى البعيد، من تقمص شخصيتين في آن واحد! شخصية الأم المرهقة مع ابنها الذي يحارب من أجل الحياة، والأم السعيدة المبتسمة دائمًا مع صغيرتها التي من حقها أن تكون طفلة طبيعية في ظل حياة غير طبيعية.. أغمضت عيني وأنا أذكر نفسي.. لقد قررنا المحاربة! قررنا الكفاح ضد المرض.. كوحدة واحدة مهما كلفنا الأمر.. فصراع المرض شيء وممارسة الحياة بشكل طبيعي خلال الصراع هو شيء آخر .

أبريل 2013:

جاء اليوم الذي أنتظره كل عام.. عيد ميلادي! فقد ظلت الطفلة بداخلي حريصة على الاحتفال سنويًا والاستمتاع بكل مظاهره: التورتة والزينة والهدايا والمعايدات.. وهذا العام يصبح الاحتفال مهمًا أكثر فقد انتهيت من أعوامي العشرين، وبدأت مرحلة جديدة وهي أول عام في عقدي الثلاثين. حلمت في مخيلتي بحفل يجمع أصدقائي وعائلتي، حيث أرحب بعقدي الثالث والذي يعتبر في عُرف الدنيا علامة مؤكدة أني الآن امرأة ناضجة. لقد كنت أنظر إلى ذوات الثلاثين عامًا وأنا صغيرة على أنهن ناضجات، دائمًا ما كنت أتخيلهن مسيطرات على تفاصيل حياتهن ومقبلات على هذه المرحلة الجديدة بنضج ووعي، فأصبح المطلوب مني أن أصنع قرارات مصيرية بينما أنا في الحقيقة تائهة ولا أشعر بالنضج نهائيًا .

جلست في ركن هادئ أتخيل حفلة عيد ميلادي الخيالية، هربت بخيالي إلى تفاصيل الحفلة. أغمضت عيني ورأيت في مخيلتي الوجوه السعيدة المبتسمة إلى الكاميرا، تهاني عيد الميلاد والحفلة السعيدة. فجأة توقفت كل هذه الأفكار السعيدة مرة واحدة وقطعت بصوت حاد أصبح مألوفا إلى أذني! صوت قيء عنيف من ناحية فراش زين. إنها لحظات عنيفة يفقد فيها الجسم السيطرة تمامًا على المقاومة ويستسلم لإحساس القيء العنيف، كانت هذه هي الجلسة الثالثة للكيماوي التي تم اختيارها لتصبح من العنف الكافي للهجوم على السرطان بشتى الطرق. قفزت من مقعدي وإلى الفراش في خطوة واحدة كبيرة حاملة الدلو الرمادي البلاستيك بيد، وأحاول جاهدة الوصول إلى المناشف باليد الأخرى. ظللت أربت على ظهره لأطمئنه، بينما كنت أشعر بتقلصات عضلاته وانتفاضات جسده فقد كان هذا

النوع من الكيماوي عنيفا ومركزا ومن المستحيل السيطرة على أعراضه الجانبية .

مددت جسدي بجانب زين بعد انتهائه وأنا أضمه ليرتاح قليلًا قائلة : "برافو عليك يا زين، أنا مبسوطة منك. إنت قوي! بترجع وبعديها كإن مفيش حاجة حصلت تبتسم وتضحك. معلش يا حبيبي إن شاء الله الدنيا حتبقى أحسن " ، استقام قليلًا ليستطيع أن يرفع رأسه وينظر إليّ قائلًا : "ماما.. مهي لازم تبقى أحسن! أصل مفيش أوحش من كدة !" ، ضحكت بكل ما في، ضحكنا بشدة وأنا في ذهول من نضجه وقدرته على السيطرة على الموقف. فقد كان على حق، عندما يكون الكيماوي بهذه القوة ليجبر الجسد على إفراغ أي سوائل بداخله كل 10 دقائق فمن الصعب أن يكون هناك ما هو أصعب .

لقد ساعدني ابني على تذكر أنه توجد طريقة واحدة فقط للنظر إلى الأشياء، وهي أن الأمور الصعبة لن تبقى كذلك للأبد، وأنها إن ازدادت صعوبة فستصبح في المستقبل أسهل. وأن هناك جانبا إيجابيا في كل شيء في حياتنا ولكننا نفشل في رؤيته أحيانًا. ساعدت زين على النوم وانتهيت من صلاتي التي أصبحت الفقرة اليومية من حديثي مع الله التي أصب فيها قلبي وعقلي كلما لامست سجادة الصلاة. ظللت أتحرك بلا هدف في الغرفة وصورة الكيماوي تراودني، وكرهت بكل ما فيّ أن تكون آخر شيء أفكر فيه. أحسست بطاقتي تستنزف من شدة الكيماوي وعنفه وكرهت أن أذهب إلى النوم والأفكار السلبية تسيطر بقوتها على عقلي وتذكرت المبدأ الذي طالما عشنا به يوميًا وهو "دايما أنهي يومي بحاجة حلوة، بحاجة إيجابية.. الطريقة اللي بدخل بيها ننام بليل، وننهي يومنا بتحدد إزاي نصحى ونعيش اليوم اللي بعده ".

فقررت أن أنظم حفلة كبيرة سعيدة مليئة بالألوان والبهجة ووجدت المناسبة الممتازة لهذه الحفلة! ففي ظل أسابيع قليلة ينهي زين خطوة كبيرة في علاجه قبل عملية كبيرة لاستئصال الورم لكنه أيضًا يقترب من عامه السادس. وجدت طريقتين للنظر إلى الأحداث المقبلة في حياتنا واختيار أكثرها إسعادًا لقلبنا فبالرغم من رغبتنا الشديدة في التخلص من الورم، ولكن فرحتنا بعيد ميلاد زين كانت بالفعل أكبر. قمت سريعا ونظرت إلى النتيجة الميلادية واخترت يوما في آخر الأسبوع (الويك إند) الأخير قبل جلسة الكيماوي المقبلة. سيكون تعافى قليلًا من الجلسة السابقة وفي حالة صحية أحسن تسمح له

بالاحتفال. قبل الجلسة التالية ظللت أرسم تفاصيل الحفلة في الحديقة، أي مكان مغلق سيكون خطرا على صحة زين، ومناعته الضعيفة، بينما الحديقة ستعطينا إحساس الفرحة والبهجة الذي افتقدناه في وسط الطبيعة والموسيقى. ظللت أرصد التفاصيل وأتخيلها في عقلي، أردت أن أرى الأشياء الإيجابية فقط، فتخيلت الشمع والتورتة والاحتفال والضيوف وأصناف الأكل.. جعلنا حفل عيد الميلاد هو شاغلنا الأول وأصبح لدينا هدف إيجابي نسعى إليه، نتكلم في تفاصيله كلما ذهبنا إلى المستشفى لتلقي العلاج أو نقل الدم. وحين تجمعنا مساءً على مائدة العشاء .

جاء يوم عيد الميلاد وكان زين في أسعد حالاته، اتجهنا إلى الحديقة وبدأت التفاصيل كما رسمناها وتخيلناها تتجمع سويًا لتكوّن أجمل لوحة. كان يوما ربيعيا جميلا يداعبه الهواء الكافي ليلطف الجو بدون أن يسبب أي قلق لاحتمال برد أو الإيذاء بجهاز مناعة زين. رسمت الأشجار الخضراء والورود الملونة معا لوحة طبيعية جميلة تبعث على الدفء والبهجة في القلوب، بينما بدأ أصدقاؤنا في الحضور وتعالت أصوات الأطفال وهم يلعبون، امتلأ الجو العام بالطاقة الإيجابية بالرغم من مشاعر الحيرة المشوشة التي انتابت الجميع. فبينما استمتع الجميع باليوم الجميل، ظل الفيل الأبيض في الغرفة يراود الجميع وهم ينظرون إلى زين، رأيت المشاعر المختلفة في الوجوه حولي، فبالرغم من سعادة الجميع لكن ظل الخوف من السرطان يسبب إحساسا ثقيلا في قلوب الجميع .

ذهبت إلى منطقة لعب الأطفال لأنادي على زين، لكي يطفئ الشمع مع أصدقائه، رأيته يمشي تجاهي وسط أصدقائه، وبالرغم من تعبه وإرهاقه وعدم قدرته على الحركة سريعًا أو الجري مثل الأطفال، لكنه لم يسمح لضعف جسده النحيل أو لون جلده المتغير أو وجهه الخالي من الرموش والحواجب أن يسرق من فرحته في هذا اليوم. وللحظة قصيرة تبادلنا النظرات بينما انعكست أشعة الشمس على رأسه الفارغ من الشعر، دبت الحياة في صورة لون وردي في وجنتيه، وابتسم ابتسامة كبيرة وهو يلوح لي بعلامة النصر.. كان مجرد طفل يحتفل بعيد ميلاده السادس، كان يعلم أنه مختلف، وكنا على يقين أنه مختلف، ولكن لفظ مختلف في حد ذاته ما هو إلا انعكاس لرغبة العقل في رؤية الأشياء والنظر إلى الحياة حوله .

بهدوء وبقليل من الكلام اقترب تامر مني قارئًا كل مشاعري بدون أن

أتحدث، وهمس في أذني : "حيكسب! متخافيش! وحنحتفل بأعياد ميلاد كتير سوا إن شاء الله " ، ثم إستمر بالمشي ونادى على الأطفال ليتجمعوا حول التورتة. وقفنا جميعًا حول التورتة وسط الكثير من الأصدقاء من جميع الأعمار، تلتصق أكتافنا ببعض وبدأنا في الغناء بكل ما عندنا من قوة "سنة حلوة يا جميل، سنة حلوة يا زين " ، وبينما رأيته ينحني ويملأ الهواء في فمه لكي يطفئ الشموع همست بداخلي بدعوة إلى الله، صمتت أصوات الحفلة حولي ولم أر سوى زين ولم أسمع إلا صوتي وأنا أناجي الله في سري "يا رب تديم الفرحة في قلوبنا وتساعدنا نقاوم بيها كل الضلمة حوالينا، يا رب تخليه فرحان على طول ومتحرمناش من اللحظة دي أبدًا ". انحنى تجاه التورتة الملونة والمزينة بشخصياته الكرتونية المفضلة وأطفأ الشموع.. رفع رأسه ونظر إلى ضيوفه مبتسمًا، وهو يبدأ عاما جديدا في عمره وفي الحياة المقدر لها أن تغير الكثير من حولها .

الأمل كل 15 دقيقة

"لا يجب أن أبحث عن لحظات استثنائية

للشعور بالسعادة، فهي أمامي مباشرة

إن كنت مهتمة وممتنة للحياة ".

برينيه براون

يونيو 2013:

مرت الأسابيع والشهور، وإذ بي أكتشف مرور أربعة أشهر منذ علمنا بمرض زين، لا أعلم كيف مر الوقت، ولكني اكتشفت هذه الحقيقة بينما كنت أعمل على الدفتر الكبير الذي أعددته ليحتوي كل تفاصيل رحلة العلاج. كانت التفاصيل اليومية وكأنها تزيد وتتكاثر كل ساعة فكان الدفتر ضروريا ليحتويها كلها. احتوى على نتيجة ميلادية مطبوعة تساعدني على معرفة الأيام التي انتهت من رحلة العلاج الطويلة والتي توقع مدتها أن تكون حوالي عامين، كذا أرى العلامات السوداء التي أضعها على كل يوم يمر وأبتسم فقد كانت تمثل لي العد التنازلي والأمل في أننا نقترب من خط النهاية. وبينما احتوى الدفتر على أوراق علاجية حرصت أن يحتوي أيضًا على ذكريات جميلة مثل صورنا مبتسمين في المستشفى أو رسائل من أصدقاء زين، تخيلت أن آخر الرحلة يجب أن نتذكر كيف مررنا بها ليس فقط من خلال المصاعب ولكن أيضًا من خلال الذكريات الجميلة، ولحظات الصمود والاستمرار .

أصبح الوقت لا يمثل شيئا فهو إما يمر ببطء شديد، أو بسرعة شديدة يصعب اللحاق بها، كنت أخرج نفسي من الفراش يوميًا قائلة لأذكر نفسي : "إمبارح عدى، والنهاردة كمان حيعدي، خدي اليوم بيومه، ومتفكريش في بكرة ". كان هدفي هو مرور كل يوم بسلام، ففي عقلي اليوم الذي يمر هو خطوة أقرب لخط النهاية. ولكن بينما يعتبر هذا الأسلوب في مواجهة المصاعب هو الأمثل والأقوى، كان يتم ضرب عُرض الحائط به كلما اضطررنا إلى الذهاب إلى المستشفى فجأة بسبب حرارة عالية أو آلام غير مفهومة. ظللت أتحرك يوميًا في هذه الرحلة المجهدة والمتوقع استمرارها قرب السنتين بابتسامة كبيرة وروح مكسورة. أصبحت حياتنا على كف عفريت، نعيش على

الحقائب المتنقلة بين المستشفى والبيت، نتعامل مع ناس أغراب فرضوا علينا وأصبحوا جزءا من حياتنا. كُتب علينا أن نرى ابننا يذبل أمامنا ويضعف بينما نحن مطالبون بأن نذكر أنفسنا أنها ما هي

إلا مرحلة مؤقتة قبل الشفاء إن شاء الله .

أصبح السرطان الحقيقة المؤكدة في حياتنا والتي نراها بكل تفاصيلها من أول الأنابيب المثبتة في صدر زين، مرورا بالأوعية الرمادية في كل ركن من المنزل الملاحقة لنوبات القيء سريعًا، انتهاءً برأس زين الخالي من الشعر ووجهه الخالي من الحواجب والرموش. أصبح واقع حياتنا سخيفا ومريرا مما أثار انتباهي أننا لا نملك السيطرة على أي شيء على الإطلاق! وبالرغم من محاولتنا عيش الحياة كل 15 دقيقة، ولكن رؤية زين يوميًا في هذا الحال كانت كافية أن تكسرنا من الداخل .

من ضمن الحقائق الكثيرة التي أصبحت واقعا، واقع فقدان السلام الداخلي، وقد مللت من إحساسي بقلة الحيلة تجاهه بل مللت من إحساسي بأني أعيش حياة آلية، منتظرة أحداث اليوم لكي أتعايش معها، ربما لن أملك السيطرة على أي شيء في حياتي، ولكني أملك السيطرة على كيفية التعامل معها مما يعني أني يجب أن أكون قوية، لنفسي ولزوجي ولأولادي. يجب أن أستعد بقليل من الإيجابية خلال رحلة الصبر. أصبحت راحة بالي هي الشيء الوحيد الباقي لي والذي يمدني بالقوة. ذكرت نفسي بأنه لا مجال للضعف وأن تقبل الحقيقة هو أول خطوة في طريق القوة. لكي يتغير أسلوب الحياة ويصبح كل 15 دقيقة يجب أن أقوي نفسي وأصبر، بينما لا أستسلم للإحساس السلبي الذي تفرضه علينا معركة السرطان. كان الحديث مع النفس ضروريا وحتميا، وجدت مكانا آمنا لأبكي وأتحدث مع نفسي وأصمت كل الأصوات في رأسي، وأتيقن بأن القرار الوحيد الذي لدي حرية السيطرة عليه هو أني أتحكم في يومي على مدى فقرات قصيرة مدتها 15 دقيقة. تيقنت وتقبلت أني لا أملك حرية التخطيط لغد، لأنه ليس لي وأني لا أعلم ماذا قد يحدث خلال الليل. تيقنت أن الحياة أقوى منا جميعا، قادرة على تغيير خططك في أي وقت عن طريق أي شيء، أصبح السرطان يتحكم في حياتنا، وأصبح أني لا بد أن أقبل أسلوب الحياة الجديد وأتخلص من حزني على عدم القدرة على السيطرة على الوقت والتخطيط .

إن تقبل الحقيقة هو أصعب الخطوات في التعامل مع الواقع الأليم،

فالإنسان بطبعه عنيد يرفض التغيير المفروض عليه ويقاومه، ونوع من أنواع المقاومة يكمن في الرفض وعدم التقبل. ولكن رفض الحقيقة

لا يعني تغيير الواقع. نظرت بجانبي ورأيت الكثير من الحقائب والأمتعة والأشياء التي لم أتمكن من تصنيفها؛ الملابس التي لم يتسع الوقت لغسلها، بدأت أتصفح هذه الأشياء ووجدت أنوف المهرجين الحمراء التي ارتديناها منذ أربعة شهور، يوم قررنا البحث عن فريق طبي جديد، وبدء رحلة العلاج مع أطباء يتسمون بنوع ما من الإيجابية والإنسانية. تذكرت نظرات الناس لنا ونحن ندفع بزين على الكرسي بالعجل وقد تمكن السرطان من جسده، كنا نمشي بقوة وثبات وعلى وجوهنا هذه الأنوف الحمراء المضحكة! لم نهتم بنظرات الناس وشكهم بأن هول الصدمة قد أفقدنا عقلنا، ولكننا اهتممنا بإحساس زين ونفسيته. ماذا حدث لهذه الأنوف الحمراء وهذه العزيمة الإيجابية، والتي أطاحت برأي الأطباء واستخارت الله في طريق جديد؟ لقد أصابها التعب والإرهاق من حجم الرحلة.. وقفت أمشي في طريق الذكريات وأنا أحمل الأنوف الحمراء بيدي. لبست الأنف الأحمر ونظرت في المرآة، وأنا أشعر ولوهلة بقوة غريبة تدب في أنحاء جسدي وكأني بطلة من سلسلة كوميكس مشهورة. عدت إلى دفتري الكبير مرة أخرى، وكتبت : "السرطان صعب ومش سهل بس إحنا حنفضل نتريق عليه !".

(Cancer is serious…. But we'll keep Laughing at it).

قف واصمد وتعامل

"لم أتعامل أبدًا مع شيء أكثر صعوبة من نفسي،

التي تساعدني أحيانًا وتعارضني أحيانًا أخرى ".

الإمام الغزالي

14 يونيو 2013:

كانت الساعة الثالثة والنصف فجرا عندما قررت أن أتوقف عن محاولات النوم المصحوبة بالتقلب المستمر، فقمت من السرير وأنا على يقين بأنه لا مجال للنوم في هذا اليوم! فبعد ثلاث ساعات ستبدأ رحلتنا إلى المستشفى لواحد من أهم وأقوى أيام المعركة! يوم العملية الجراحية !

مشيت ببطء أتفحص الأطفال نائمين في أسرّتهم، حتى وصلت إلى سرير زين ورأيت ملابس زين مجهزة على السرير ليرتديها في وقت العملية ومن بينها تي شيرت مكتوب عليه "لا استسلام !" ثم وجدتْ الدموع ممزوجة بابتسامة طريقها إلى عيني وأنا أفكر في أن زين وملك سينفصلان عن بعض مرة أخرى اليوم! شعور مؤلم وقاس أن أكون أما لطفلين أحدهما مريض بداء خطير ويقاوم من أجل حياته، والأخرى طبيعية تستمتع بطفولتها كما ينبغي! أحاسيس مختلفة من الرعاية، والشحنات العاطفية، والأمومة! ثم لمحت في الظلام على طاولة ملك لافتة صغيرة كتبتها ولوّنتها مغطاة بالرسومات الملونة قائلة : "حتكسب يا زين !" يا الله على هذه الفتاة! كمّ المشاعر التي كُتب عليها أن تحملها في مثل هذه السن الصغيرة لا توصف، وإحساسها الصادق بكل شيء حولها .

جلست بهدوء على سجادة الصلاة لأسترسل في حديثي اليومي مع الله. بين كلماتي الصامتة التي لا يمكن أن يسمعها أحدٌ إلا هو، ودموعي المحبوسة كي لا أوقظ أحدا.. أخذت نفسا عميقا ووضعت جبيني على الأرض أترجى الله أن يمر هذا اليوم الثقيل بسرعة. كان ثقيلا جدا علينا جميعا! انتظرناه بعد كفاح استغرق 4 أشهر، وتعرض زين خلالها لجرعة كبيرة من السموم في محاولة للقضاء على الورم نهائيا. ما زلت أحلم بالقصة الخيالية التي حلمت أن أقصها عندما يكبر

زين لأولاده : "في يوم من الأيام، وأنا عندي 30 سنة ابني تعب قوي وجاله نوع عنيف من السرطان! بس أنا صليت ودعيت واترجيت ربنا تحصل معجزة، وفعلا! يوم العملية لما الدكاترة دخلوا يشيلوا الورم ملقوش حاجة واستغربوا جدا إزاي سرطان عنيف كده يختفي؟ " ، ولكن ما حدث في الواقع كان بعيدا كل البعد عن هذا !

احتضنت ملك بقوة قبل أن تذهب إلى المدرسة، ووعدتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام. ولكن الآن يجب أن نقف جميعا كوحدة واحدة ونقاتل سويا. ذكرتها باحتياجي لها أن تكون قوية وأن تتحدث عن مشاعرها ولا تخاف منها في أي وقت، تركت قطعة من قلبي معها، ولكن كان كل كياني مع زين! لم أستطع طرد فكرة فتح جسده الصغير والعبث به بعد ساعات قليلة .

بدأ اليوم ومعه الابتسامات المصطنعة والمحاولات الإيجابية للحفاظ على الروح المعنوية. ارتدينا أنوف المهرجين وضحكنا تأكيدا منا لزين أن بإمكانه الانتصار . "العساكر الأشرار دخلوا جسمك، بس النهاردة بقى يا زين هنوقع الملك، رئيس الجيش " ، هكذا وصفنا لزين حالته، واستقطبنا بهذا الوصف كل قدرته على المقاومة والقتال. قلنا له : "بعد ما نخلص على الملك هيبقى فاضل كام عسكري كده، نخلص عليهم بكل سهولة ". ولكن الحقيقة المخيفة كانت في أن نوع السرطان الذي تمكن من جسد زين هو سرطان "الخلايا الجذعية " وهو من أسوأ وأشرس الأنواع ليس في علاجه فحسب، وإنما في احتمالية حدوث انتكاسة بسهولة. كان رد فعلنا بسيطا حينما يظهر الأطباء خوفهم من عدم القدرة على القضاء نهائيا عليه.. كنا نقول : "لما يبقى يروح ويرجع نبقى نشوف ساعتها نعمل إيه، إحنا يا دوب مكملين النهاردة.. خوفنا من اللي يمكن يحصل بكرة حيوقفنا النهاردة !". كان كل تركيزنا وهدفنا هو الصمود في كل مرحلة والانتهاء منها .

وصلنا المستشفى وأخذوا زين منا على السرير بالعجل، إحساس قاسٍ أن أرى ابني أمامي على هذه الحال وأنا مسمَّرة في مكاني

لا أستطيع فعل شيء. جلست في غرفة الانتظار أنظر إلى الشاشة الكبيرة. كل مريض داخل غرفة العمليات يرمز إليه برقم ليخبر أهله بتطورات الحالة وتتغير بيانات الشاشة كل دقيقتين، كل دقيقتين يطمئن أهل طفل على ابنهم، إلا زين لا تتغير حالته لمدة سبع ساعات! ظللت أقرأ نفس الجملة بجانب اسمه "في العمليات ". بدأت أتحدث

بصمت مع نفسي بدون أن أدري : "سبع ساعات من ساعة ما خدوه! سبع ساعات وهو مع ناس ميعرفهومش في أودة ساقعة ومعقمة! سبع ساعات من ساعة ما فتحوا جسمه.. بس بس إيه يا رضوى ده! مش هي دي الخطة. الخطة إنك متركزيش وتشغلي نفسك وتتفرجي على فيلم ولّا مسلسل عشان الوقت يعدي. مفيش حاجة في إيدينا نعملها. كل ساعة بنوقف وندعي ونصلي ونطمن أهالينا ونطلب الدعاء.. مفيش حاجة تانية ممكن تتعمل! يلا يا رضوى ارجعي للفيلم مشهد يضحك: واحد عامل دكتور وهو مش فاهم أي حاجة، لابس بالطو أبيض، شبه اللي كان الجراح التاني لابسه لما أخد زين أكيد الجراح ده تعب قوي دلوقتي، ده بقاله سبع ساعات ولسه فاضل قدهم بناء على كلام الممرضة! ده بقاله كتير قوي جوه.. ياه إنت تاني يا مخي؟! الخطة بتاعتك بتفشل !".

لم أستطع أن أصرف انتباهي عن غرفة العمليات وصورة جسد زين النحيل المفتوح على سرير العمليات مهما حاولت . "طيب اقري قرآن بقا! ريحي قلبك طالما مش عارفة تريحي عقلك " ، نظرت حولي وأنا أمسك مصحفي وتأملت وجوه الأهالي حولي مجهدين وخائفين منتظرين صغارهم في غرفة العمليات . "أنا مش عارفة أنا جيت هنا إزاي! إزاي زين اللي خدوده على طول حمرا وشعره كيرلي يبقى جوه كده؟ وأنا.. إيه الأودة الكئيبة دي اللي أنا فيها دي؟ بس بقا! ركزي يا رضوى! اشغلي نفسك بحاجة تانية. قلبي في صفحات المصحف واقفي مرة واحدة واختاري أي صفحة واقري! أهو! أديكي ألفتي لعبة تشغلك ومحدش حيتكلم معاكي وحيسيبوكي في حالك. إنت أم قلقانة قاعدة ماسكة المصحف وابنها في العمليات ". شغلتني الفكرة وظللت أقلب بين صفحات المصحف وتوقفت وأنا أوجه أصبعي

بلا هدف، وتوقفت أنفاسي فجأة وأحسست بصعوبة في التنفس، قفز تامر بجانبي في لحظة يهمس "فيه إيه؟ " ، لم أستطع الكلام ولكن أشرت بأصبعي تجاه الآية التي اخترتها بلا هدف، وفي الحقيقة الآية هي التي اختارتني !

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا تحزن ان الله معنا)

صدق الله العظيم .

مرت 7 ساعات أخرى وخرجت علينا الممرضة تبلغنا بانتهاء العملية ونجاحها وتطمئننا على حالة زين، فقد صمد خلال عملية جراحية طويلة وصعبة مدتها 14 ساعة! وحاليا يتعافى في غرفة العناية المركزة. عرفت الراحة طريقها إلى قلوبنا أخيرا، عندما فتح عينيه المرهقتين تحت تأثير البنج وتعرف علينا. خرجنا من غرفة الانتظار إلى مدخل غرفة العمليات، ونحن ننظر إلى الممرضة في حيرة وأجابت الممرضة عيوننا المتسائلة في صمت، وهي تمد إلينا صينية طبية وتقول : "إنتو أول ناس أشوفها يطلبوا يشوفوه على الحقيقة مش في الصور، أهو الورم اللي كان جواه.. وزنه كيلو ونص ".

إن معرفة عدوك فقط مختلفة كل الاختلاف عن مواجهته وجها لوجه! وجدت نفسي أمد يدي لأمسك الورم بدون أن أشعر وكأني أصبحت وحدي في الغرفة! شعرت بالغرفة تضيق والمسافة بيني وبين عدوي تقترب وتصغر. كان دافئا ومغطى بالدماء، كبير الحجم، وكأنه كائن حي ينظر إليّ بعيون سوداء صغيرة كثيرة تتخللها أنسجة. أحسست بالضعف والغضب والحيرة في آن واحد! وجدت نفسي أسترجع شريط حياتي كاملا، فأنا أغسل الخضروات والفاكهة جيدا، أمنع المعلبات، وأطبخ كل ما هو صحي في المنزل المعقم والنظيف دائما. كيف انتهك هذا الحقير بيتي ودخله؟ كيف تجاوز كل هذا؟ كيف جعل من جسد ابني منزلا مريحا له يكبر بداخله حتى يصبح وزنه كيلو ونصف الكيلو جرام؟ وبينما كنت أصوره بكاميرا التليفون حفظت تفاصيله في ذاكرتي وخيالي، وكانت رؤيته رأي العين كافية أن تشعل نار الحرب بيننا مرة أخرى! وعلى الرغم من أنني كنت متعبة، ومرهقة، وغاضبة لم أشعر بالهزيمة، بالعكس شعرت بالانتصار، لقد انهزم هذا اللعين! انهار في هذه الجولة من المعركة ولن يهدأ لنا بال حتى يخسر الحرب بأكملها. أحسست بالقوة تنتشر سريعًا في عروقي، في رأسي وجسدي بأكمله قوة شعرت معها أنني لست وحدي! الله بجانبنا ولن أتوقف حتى أسترجع حق ابني من هذا السرطان الملعون .

يقولون إن أتعس الناس هم أكثرهم ابتساما، فطالما أخفوا حزنهم وتحملوه وراء أقنعة من الابتسامات كنوع من أنواع المقاومة الإيجابية. وبالرغم من عدم كوني خبيرة في هذا المجال النفسي فإني أستطيع فهم هذا المبدأ جيدًا. هناك عادة مشاعر لا يمكن تفسيرها التي تتحكم في كيفية التعامل مع المواقف، وبالتالي تحدد الاتجاه إما سلبيا وإما إيجابيا تجاه الحياة. فالتجارب الصادمة التي يواجهها المرء في الحياة ليست سوى لعبة مستمرة من محاولة إيجاد التوازن لبناء القدرة على

التعامل والصمود، ونجح عقلي في تذكيري أن رحلتي مع هذه اللعبة بدأت ليس فقط مع مرض ابني ولكن قبل هذا بكثير .

مارس 1995:

شهر واحد قبل عيد ميلادي الثاني عشر، وجدت نفسي أتأرجح في السيارة مع والدي وأخي في الطريق في منطقة نائية اختفت منها علامات الحياة. وكلما اقتربنا من وجهتنا اتضح أكثر السبب من هذه الزيارة .

ذهبت أمي إلى خالقها وتركتنا قبل يومين، وكان والدي بحاجة إلى رؤية نظرة التأكيد على وجوهنا أننا نتعايش مع الواقع ليحدد المنهج لبقية حياتنا. كان الحادث الذي شهدتُه مع أخي وأفقدنا إحساس الأمان مفصلا بشكل واضح في ذاكرتي. صوت النوافذ وهي تتحطم، ارتجاج سيارتنا وميلها على جانبها، مشهد أمي وهي تطير في الهواء، الظلام الحالك الذي أحاط بهذه الليلة والإضاءات الخافتة النابعة من المصابيح الأمامية من السيارات تبحث عن جسدها في الصحراء المظلمة، صرخات كل من حولي عندما كنت أنا من وجد جسدها يرقد بسلام على بعد أمتار من سيارتنا. كل هذه التفاصيل وأكثر محفورة بشكل واضح في ذاكرتي، وكأنها قصة قيلت لي وليست أحداثا عشتها بنفسي! موتها فجأة في سن مبكرة لعب دورا كبيرا في تشكيل موقفنا ومنهجنا لبقية حياتنا. وقفنا هناك ننظر إلى قبرها، نصلي وندعو بصمت، أتذكر اختلاس النظر إلى أبي ورأيته واقفا صامدا بجانبي متحاملا على نفسه، فقد أصبح أرمل في الأربعين من عمره! وكانت أمي أصغر منه بعامين توفيت بعد عامها الـ 38. وقف الأب الحنون المسئول يشرح لأولاده أن الوقت قد حان للتعامل! التعامل مع الحياة والثبات على ذلك !

إن موت أمي الجميلة، المثقفة، المحبة والملمة بكل تفاصيل حياتنا في هذه السن المبكرة هزني وتركني أشعر بالفراغ في حياتي لوقت طويل، كنت أكرر عبارات مثل "أنا كويسة " بدون فهمها، ولكنها كانت محاولة لتثبيت الإحساس حتى ولو لم يكن صحيحا، لم أسمح لنفسي أن أشعر بالضعف أو الأسف لنفسي! كانت نظرات الشفقة من الجميع كافية بالنسبة لي لأتمرد على هذا الإحساس لبقية حياتي بداية من سن المراهقة! أصبح الضحك والابتسام آلتي الدفاعية، حتى كبرت وانضممت إلى "شلة الكبار " وأدركت أنه من الممكن أن يكون السبب

الذي يقتلني ويقضي عليّ من الداخل! لم أعد الفتاة الشابة التي شهدت موت والدتها وتكيفت مع الصدمة بدعم والدها وعائلتها بالكامل، بل لم أعد اليتيمة الصغيرة الساذجة التي تسير في الحياة بدون قلق! لقد أصبحت مسئولة عن بيت وأسرة ثم أصبحت أما! أما لطفل مريض بالسرطان! تحولت الحياة إلى سيناريو مختلف تماما لم أكن أتخيل أنني سأكون بطلته. فقد ظننت أنني أكملت دوري ودفعت مستحقاتي في هذه الدنيا عندما رأيت أمي تقتل أمامي في سن مبكرة، ولكن كان لدى الله تدبير مختلف. لقد حان الوقت للتعامل والصمود يا رضوى، حان الوقت للوقوف والتعامل مع هذا الحمل الثقيل السخيف الذي ألقي عليك !

عودة إلى يونيو 2013:

مرت الأيام والسنون بعد أن فقدت والدتي، 18 عاما على وجه التحديد، ووجدت نفسي جالسة بجوار سرير زين الذي تعافى بعد جراحة استغرقت 14 ساعة، كل جزء من جسده كان مغطى بأنابيب وأسلاك، معتمدا على مجموعة من آلات طبية لمساعدة رئته التي لم تكن تعمل بكامل طاقتها أثناء الجراحة ومساعدته في التنفس مرة أخرى. رأيت المشهد كاملا وظللت أذكّر نفسي أنه تخلص من ورم وزنه كيلو ونصف. نعم، هو لا يزال في آلام وتعب، ولكن الورم تم استئصاله والتخلص منه، لا يزال في مرحلة العلاج للقضاء على باقي الخلايا السرطانية، ولكننا اجتزنا شوطا كبيرا فيه. نظرت حولي أبحث عن مساعدة . "مفيش حد كبير ييجي يمسك إيدي ويقولي كله حيبقى تمام؟ مفيش خالص! خلاص بقيت أنا الكبيرة اللي المفروض أقول للي حواليا كلام كبار؟ ده إيه ده؟ ".

وفي ظل حواري مع نفسي دخلت سيدة شابة إلى الغرفة : هي: مساء الخير أنا الإخصائية الاجتماعية، ممكن أدخل؟

أنا: اتفضلي .

هي: عاملة إيه النهاردة؟

أنا :....

هي: يعني قصدي إنتي عاملة إيه؟ حاسة بإيه؟

أنا : "في راسي " هبلة دي ولا إيه؟ عاملة تحفة! ابني عنده سرطان من المرحلة الرابعة، موجوع ومفيش حاجة في إيدي أعملهاله، بنتي متسابة عند صاحبتي وأنا أهو محبوسة في أودة في المستشفى مش عارفة ولا أساعد ده ولا أروح لدي! مبسوطة قوى ! عايشة أحلى أيام حياتي ! "ولكن الحمد لله! كان لدي قليل من العقل والوعي مما نبهني أنها تؤدي عملها ليس أكثر، وأن ليس لها أي ذنب في حياتي. فكتمت كل هذا ورددت عليها قائلة ": بتعامل.. مش أحسن حاجة في الدنيا بس بتعامل على قد ما أقدر .

مثل هذه اللحظات البسيطة أعتبرها أداة تذكير لأخذ قسط من الراحة، والتوقف مؤقتا عن القتال المستمر والمقاومة وإحساس أنني قوية في كل الأوقات! المعركة صامدة ومستمرة "مش رايحة في حتة !" العالم أيضا مستمر في حركته؛ الأطفال ما زالوا يذهبون إلى المدرسة، والناس يذهبون إلى أعمالهم. لم يتوقف العالم لأجلي أو لأجل زين، لذا كان لا بد أن أتوقف وأتعامل من جديد .

نظرت بجانبي إلى الحقيبة الإضافية التي أصبحت أحضِّرها في كل مرة نذهب إلى المستشفى، كنا نسميها "شنطة الفرحة "! كانت مليئة باللعب وأوراق الدراسة والتلوين والتجارب العلمية البسيطة وألعاب الطاولة، وكل ما يمكن أن يقضي على الوقت بطريقة مفرحة وإيجابية بداخل هذه الغرف المعقمة! بدت الحقيبة سعيدة جدا في انتظار اللعب بمحتوياتها، ولكن زين بجانبي لا يستطيع فتح عينيه أو الكلام الآن، فما بالك باللعب! شعرت بقلة الحيلة الممزوجة بالهدوء، فلم يكن بيدي أي شيء غير الصبر والصلاة والانتظار، وبدأت مرحلة جديدة من الصمود والتعامل وهي الهدوء الممزوج بترقب النتائج! فلا يجب أن أتعامل مع الحياة دوما بالقفز والغناء واللعب والضحك! الآن أستطيع أن أبكي! وأنا بالفعل أريد حقا أن أبكي ! "هذه فرصتي الوحيدة، الاخصائية الاجتماعية خرجت وزين نائم "! ثم في وسط حديثي الصامت مع نفسي سمعت زين يدعوني بصوت خافت ونظرة متعبة جدا على وجهه :

زين: ماما.. هو أنا كسبت؟ قتلت الملك بتاع الجيش الوحش؟

وإذ فجأة اختفت الرغبة في البكاء "مش وقتك خالص يا رضوى، ابقي عيطي بعدين! دلوقتي اثبتي على الخطة! مفيش حاجة سلبية مفيش حاجة نكد، الحالة النفسية مهمة! عيطي بعدين ومتوريهوش

!".

أنا: أيوة يا حبيبي كسبت وكسبت قوي كمان! بص شوف (ثم فتحت هاتفي ليشاهد صورة الوحش المسمى بالورم).

زين: طب كويس دلوقتي فاضل العساكر بقا، نفضل وراهم.. أنا جاهز "قالها وهو يغمض عينيه ويريح رأسه على المخدة ".

لا أعلم لماذا تذكرت الفتاة الصغيرة بداخلي، كانتا قصتين مختلفتين تماما ومعركتين مختلفتين! ولكني تذكرت أبي واحتياجه لرؤية نظرة تأكيد على وجهي، كنت أنا في مكان والدي هذه المرة، كنت الأم التي تحتاج إلى رؤية تلك النظرة في عين طفلها! طفلي يعلم، ربما لا يفهم أشياء كثيرة مثل لماذا أو كيف حدث كل هذا؟ لكنه يعلم أنه يحتاج للصمود والتعامل معها! أصبحت أنا مصدر الصمود والأمان له، والنظر إلى وجهه هو كل ما أحتاجته في تلك اللحظة .

في حين كان زين يتعافى قليلا كل يوم ويسترد صحته، كنت أنا وتامر في قمة الإرهاق الجسدي والنفسي من ضغط العملية ومشوار المستشفى. كنت أتمنى شيئا واحدا فقط في ذلك الوقت، أردت فقط أن أكون في المنزل! فقد افتقدت ملك كثيرا في ذلك الوقت، صحيح أن كل كياني كان مع زين، ولكني كنت في ارتياح نفسي بعد انتهاء الجراحة مما أعطاني إحساسا بالسلام والراحة. لم يكن في استطاعتي أي شيء غير الصبر والانتظار .

جاء دوري للذهاب إلى البيت والتبديل مع تامر في المستشفى، وبعد ممارسة طقوس العودة من المستشفى من غسل كل ما كان في حقيبة المستشفى، جلست على الأريكة بجانب ملك لأشاهد التليفزيون. جاء لي صوتها الحلو الصغير وهي تحمل أوراقا كبيرة والألوان قائلة : "بصي يا ماما أنا بلون لوحة جديدة لزين وعملتها كلها ألوان عشان تفرحه ". ابتسمت قائلة "حتقولي إيه في اللوحة دي

يا لوكي؟ " نظرت في وجهي وقالت : "نورت البيت يا زين !" اختلطت مشاعري وقتها بين السعادة والحزن، فقد مرت هذه الفتاة مقارنةً بسنها الصغيرة بالكثير. من التعب والأرق، ولكن قدرتها على التحمل أعطتني شعورا بقدرتنا على الصمود. وبينما استراحت عيني وأنا أنام على الأريكة، صمتت جميع الأصوات حولي إلا أقلام الألوان بين أصابع ملك في حركات سعيدة على الورق الأبيض. وهي تكتب آمالها

وأحلامها بالألوان، ولم يسعني إلا أن أربط بسخرية بين هذا المشهد وحياتنا .

في حياة كل منا ورقة بيضاء وما علينا إلا أن نختار القصص التي سنكتبها عليها والألوان التي سنلونها بها. كل ما كنت أتطلع إليه بعد الجراحة هو سماع بعض الأخبار الجيدة. كان أملي متعلقا بأي علامات تحسُّن لضمان أننا على الطريق الصحيح. مر يومان، وكلمني تامر ليخبرني أنه في طريقه إلى المنزل هو وزين، فقد قرر الفريق الطبي إرساله للمنزل. لم أستطع تمالك نفسي فذهبت جريا إلى المدرسة لأخذ ملك، فكم أردت له أن يرانا في المنزل بمجرد أن يدخل، أردت أن يرى حب أخته ومجهودها في اللوحة الملونة خصيصا له، أردت أن أرى عينيها تلمع عندما يدخل شقيقها إلى المنزل، وجاءت هذه اللحظة وكان زين عند دخوله المنزل ضعيفا جدا مثل رجل يبلغ من العمر الكثير، يمشي ببطء، وغير قادر على الوقوف. كان يستند على ذراع تامر ويحاول بشدة المشي من تلقاء نفسه، اتسعت ابتسامته بشدة مع صوت مفاتيح الباب ترحب به داخل منزله وصرخ بصوت خافت، ولكنه بدا في رأسه عاليا وواضحا : "إحنا جينا ".

كنا جميعا في أمسّ الحاجة إلى تلك اللحظة؛ اللحظة التي نكون فيها جميعا معا تحت سقَف واحد. وتحديدا سقف منزلنا الذي يحتوي على جميع مشاعرنا: الراحة، السعادة، إنجازاتنا البسيطة، خوفنا، سلامنا ووجودنا مع بعض. كنا رسميا في استراحة حتى يستعيد زين قوته من الجراحة، قد يستغرق الأمر بضعة أيام ويمكن أن يستغرق أسابيع، كل ذلك يعتمد على قدرته على اكتساب قوته وارتدادها مرة أخرى. أدركت بعد مساعدته على التحرك في المنزل ليستريح في سريره، أن حضنه أصبح ترفا آخر لا أملكه، فأضلاعه وعظامه في آلام شديدة وأي حضن أو معانقة ولو بسيطة تسبب له آلاما شديدة. شيء آخر تم سرقته مني.. وذكَّرت نفسي "شوية بس يا رضوى، وضع مؤقت.. شوية بس ".

لحظة تحول

"ممكن متبقاش دي أحلى أيام حياتنا،

بس دايما فيه حاجة حلوة في كل يوم بنعيشه ".

مجهول

فكرة استمرار الحياة من حولي بدون كون ابني جزءا نشطا وطبيعيا منها كان مؤلما جدا! ومهما فعلت لصرف نفسي عن هذه الفكرة، كان هناك دائما شيء من حولي يجبرني على التذكر! إذا لم يكن رأسه الأصلع، أو لون جلده الشاحب القريب إلى الاصفرار، فكانت رؤية جسده النحيف جدا والضعيف كافية للتذكر .

كان العلاج العنيف يهاجم ببطء الخلايا السرطانية، ولكنه كان يقضي في طريقه على الخلايا الصحية أيضا! لقد بدا زين مريضا جدا، بالرغم من كل محاولاته القوية لأن يبتسم أو محاولته لمحاربة المرض.. كانت حالته تتحدث عن نفسها! بدأت المرحلة الثانية من التعامل مع السرطان فجأة تزحف علينا.. جاءت في شكل الغضب! وكان التعامل مع السرطان هو حرفيا مثل ركوب لعبة قطار الملاهي السريع، مليء بإحساس الصعود والهبوط والتأرجح بين المشاعر المختلفة، والتحول السريع للعواطف كان أكبر من أن يتحمله العقل .

ومع ذلك، لم يكن شعور الغضب شعورا مزاجيا، بل كان شعورا عميقا نابعا من داخلي وكان واضحا في تفاصيلنا اليومية! أصبح زين مثل طاقم الأطباق الصيني الغالي الذي نتعامل معه بحذر، والجميع يسير ببطء حوله، كنا نعانقه بعناية حتى لا نؤذيه مكان جراحته، كنا نحتفل بكل قطعة من الطعام تبقى في جسده بدون قيء. كان عقلي الباطن يعلم أنه مريض جدا، وقد تحايلت على عقلي بكل شكل ممكن لإقناع نفسي أنها مرحلة مؤقتة حتى يتحسن ويشفى، وبالرغم من كل محاولاتي كنت في النهاية إنسانة.. كنت أما !

قاومت وحاولت وتعبت وفي بعض الأحيان كنت أجلس مستسلمة أستمع إلى الأصوات في رأسي وهم يتحدثون ويتناقشون ويقلقون ويغضبون !

أغسطس 2013:

مرت 6 أشهر في العلاج، قطعنا أشواطا كبيرة ناجحة وجذرية ضد السرطان، لكنه لا يزال يظهر نفسه في أماكن عديدة في جسد زين وأكثرها نخاع العظم. كان ما تبقى من الجنود في جيش الأشرار مجموعة عنيدة لا تريد أن تتخلى عن جسد زين. ومع كل تحليل وفحص وأشعة جديدة، كانت النتائج تقريبا متطابقة، بينما كان السرطان ثابتا متجمدا لا يزداد سوءا ولا يتحسن فقد أصبحت الخلايا أذكى من العلاج وتوقفت عن الاستجابة، وكان علينا أن نبدأ في تجارب مختلفة من ضمنها أنواع علاج جديدة بعضها غير مختبر بعد !

أنهيت مكالمة مع طبيبتنا صباح اليوم بعد التأكد من التفاصيل النهائية التي كنا بحاجة إليها لرحلتنا، فقد قررنا حزم حقائبنا وترك حياتنا ومنزلنا لبضعة أسابيع لتجربة علاج جديد لزين غير متوفر

إلا في مدينة واحدة بعيدة، كنا في شهر رمضان الكريم الذي تتطلع إليه كل أسرة مسلمة، وبدلا من اجتماعنا بأصدقائنا وعائلتنا في هذا الشهر الكريم فقد انفصلنا عن حياتنا تماما وتحولت حياتنا من طقوس دينية ننتظرها من السنة للسنة إلى وحدة، وغربة بداخل غربة. وبينما أنا غارقة في كل التفاصيل اللازمة لرحلتنا إلى سان فرانسيسكو بدأت أشعر بحلول أعراض الضغط العصبي! بدأ الصداع بقصف فوق عيني، وبدأت أشعر بوخز في جسدي وانتابتني الرغبة الفورية في النوم فقط! رأيته آتيا إليّ! الإجهاد والضغط في أقوى صوره، حلقة أخرى من التوتر في طريقها إلى تدمير جسدي !

ووجدت نفسي أنادي على زين وملك وأطلب منهما بدون تفكير أن يرتديا ملابسهما سريعا. انتابتني رغبة شديدة في الهرب من نفسي. جاءني صوت ملك الجميل متسائلا : "رايحين فين يا ماما؟ " تلاه صوت زين مفعمًا بالأمل والبراءة : "البارك (الحديقة) يا ماما؟ ". لم يفكر عقلي بل نطق لساني بسرعة : "أيوة البارك، البسوا بسرعة بقى قبل ما أغير رأيي ". كان البارك أو حديقة الأطفال مكانا محرما علينا، لا نستطيع النظر إليه بنفس الطريقة الفرحة والمتفائلة، لم يعد مكانا للأطفال كي يمرحوا ويلعبوا بل أصبح مكانا محرما مليئا بالجراثيم والمراجيح غير المعقمة، أصبح يمثل خطرا على صحة زين. وكان التحرر إحساسا رائعا عندما قررت في لحظة وبدون تفكير أن نذهب. فقد كان يوما جميلا بالخارج، كان الطقس مشمسا ولطيفا، وكانت

نسب كرات الدم البيضاء عند زين في طريقها للتحسن بعد آخر جلسة كيماوي، وكان لدينا أسبوعان قبل أن نبدأ رحلة علاج جديدة. وقتها وجدت نفسي غارقة في الأوراق أكتب ملاحظات حول ما وصلنا إليه في رحلتنا العلاجية، والأولاد يشاهدون التليفزيون، كان اليوم جميلا بالخارج ولكننا لم نشعر به لكوننا في قوقعتنا بالداخل .

جرى زين وملك كلٌ إلى غرفته ليرتديا ملابسهما، بينما وقفت أنظر إلى المنضدة المغطاة بالأوراق الكثيرة، وتساءلت إذا كان يجب أن أنظفها أو أتركها كما هي. أدركت أن تنظيفها الآن ما هو إلا حل مؤقت ولكن لن ينهي الضغط فقررت أن أمشي! مشيت وتركت الأوراق والضغط والتفكير خلفي وأنا أشعر بإحساس رهيب من التحرر، أدركت أن الضغط والمشاكل دائمان ومستمران ولكني يجب أن أتركهما قليلا كي أعيش اللحظة الحالية! وكانت هذه هي لحظة التحول بالنسبة لي. وسمعت الأصوات في رأسي تقول : "مش حسمح لخوفي من بكرة إنه يسرق مني فرحتي النهاردة ".

شايفاك !

"البطل الحقيقي هو الذي ينتصر على غضبه ".

دلاي لاما

كلما اقتربت من الحديقة ورأيت ابتسامة زين تزداد وتكبر بمشاهدة الأطفال يلعبون حوله، توترت أكثر : "ماشي يا فالحة! عملتي فيها قوية والمرأة الحديدية وخدتك الجلالة أهو! كنت ممكن تاخديهم برا البيت يلعبوا بالكورة ونخلص! إنما لأ! ناخدهم البارك ونحس إننا قهرنا المستحيل !".

مددت يدي ببطء لأجد زجاجة المعقم الصغيرة، تأكدت من وجود علبة الإسعافات الأولية داخل حقيبتي، ثم بدأت في وضع الكريم الواقي من الشمس على زين وملك، وبينما جرت ملك لتلعب ناديت على زين ووضعت طبقة أخرى من الكريم، ثم تأكدت من إحكام القبعة على رأسه قبل السماح له بالذهاب! جلست في محاولة للحفاظ على هدوئي أثناء مشاهدتي لهما وهما يلعبان، فقد كنت في الحقيقة أشاهد زين وهو يلعب بينما أختلس النظر إلى ملك بجانبه. أخفت نظارتي السوداء الكبيرة عيني فاطمأننت أن ملك لن تدرك أن تركيزي الكامل على أخيها. بذلت مجهودا نفسيا رهيبا للحفاظ على هدوئي وأنا أرى زين محاطا بالكثير من الأطفال. ثم فجأة وجدت نفسي أركز أكثر على ابتسامته، فهو حر وطليق وسعيد أمامي، وعلى الرغم من كل نظرات الشفقة والتعاطف من الكبار في الحديقة أكثر من الصغار، كان في هذه اللحظة في نظري، ليس مريض السرطان، وإنما مجرد طفل !

بدأت أشعر بكتفي وعضلات رقبتي تستريح قليلا عندما رأيت زين يختار الأرجوحة كلعبته المختارة، فكانت أقل الألعاب خطورة في الحديقة، كانت فرصته للتأذي على الأرجوحة أقل بكثير من اللعب الأخرى التي تتطلب الجري والقفز! نظرت إليه هو وملك واستمتعت بابتسامتهما البريئة السعيدة الخالية من أي قلق وتوتر. إن همسات الكبار والشفقة لم تعد تضايقني، اعتدت على تجاهلهم وعدم إعطائهم أي اهتمام. تنقلت بعيني وبدأت في ملاحظة الأطفال من حولي في الحديقة. وبدأت أسمع أصواتا من داخلي : "بصي الولد ده بيجري بسرعة إزاي، يا حرام يا زين مش قادر يمشي أصلا! والبنت دي خدودها حمرا قوي

وهو لونه أصفر وشاحب ولا الولد اللي بيجري وهو بياكل البيتزا ده هناك، طاخ! إيه ده البنت اللي هناك دي وقعت على وشها، وقامت كده عادي ولا كإن في حاجة حصلت! ده لو كان زين كان زمان في عربيتين إسعاف جم هنا قبل مانا أوصله أصلا عشان الجهاز اللي في صدره. كلهم عادي بيستمتعوا إلا ابني !".

عندها فقط شعرت بضغط في معدتي ووخز في قلبي! ما هذا الذي أفعله؟ هل أحسد أطفالًا آخرين على صحتهم؟ هل أصبحت غيورة لأن الأطفال الآخرين من حولي مستمتعين بطفولتهم؟ ! "مالك يا رضوى! إيه ده! إزاي بقيتي شخصية مريبة كده؟ قاعده في البارك بتراقبي الأولاد الصغيرين وبدل ما تفرحي بيهم.. تحسديهم على طفولتهم؟ !".

شعرت بالأصوات في رأسي تتحدث بسرعة رهيبة مما سبب حالة من الاختلاف التام بين قلبي وعقلي، وحاولت جاهدة أن أشعر بالراحة ولكنني لم أستطع. علت أصوات الأطفال أكثر وأكثر، وأصبحت أصواتهم السعيدة تصل إليّ بطريقة أغضبتني أكثر. لم أعد أشعر بالغيرة، ولكني كنت غاضبة! كنت غاضبة لأن ابني لم يستطع أن يسقط مثل هذا الطفل، وكنت غاضبة لأنني سعدت ورضيت بالأرجوحة. كنت غاضبة لأن خدود تلك الفتاة كانت حمراء بينما لون بشرة زين كان أصفر شاحبًا. كنت غاضبة وأنا أرى هؤلاء الأطفال يأكلون وهم جائعون جدا، لأن بغض النظر عن مدى إرهاق ابني من اللعب اليوم فإنه لن يجوع ولن تكون له رغبة في الطعام. وبالرغم من تفاقم الغضب وتزايده بداخلي بسرعة فإنه تلاشى بشكل مفاجئ، عندما رأيت زين وهو يسير نحوي بابتسامته الكبيرة التي تذوب قلبي قائلًا : "أنا انبسطت قوي النهاردة يا ماما، ممكن نروح دلوقتي عشان أريح شوية؟ ".
أخفيت شعوري بالغضب من الكون، ثم ابتسمت واحتضنته وأنا أنادي على ملك لكي نعود إلى المنزل .

كل ما احتجته هو أن أكون وحدي في غرفتي لكي تخرج دموعي بكل سهولة وسرعة! جلست على سريري أتساءل كيف وصلت إلى هنا؟ كيف أصبحت هذا الشخص الضعيف الذي لا يؤمن بجمال العالم ولا يرى إلا البشاعة فيه؟ كيف سمحت لنفسي أن أترك غضبي يتحكم في ويسيطر على رؤيتي لهؤلاء الأطفال حتى لو كان في ذهني! كنت أتوقع الضعف، كنت أتوقع الخوف، كنت أتوقع الغضب.. لكنني لم أكن مستعدة! إن معرفة أن شيئًا ما قد يحدث ليس معناه أن تكون مستعدًا له! كان الغضب اليوم أقوى مني، فقد ضعفت! وفي ضعفي رأيت

الشيطان بعينه! لقد رصدته في رأسي! سمحت له أن يخرجني عن مساري، سمحت له بالسيطرة على مشاعري، وأعطيته فرصة ليأخذ نعمتي من أمام عيني! فقد كان باستطاعتي أن أستمتع بتلك اللحظة التي كان زين فيها سعيدا، ولكن بدلًا من ذلك استسلمت لحزني وسمحت له بالسيطرة عليّ .

جاء إحساس الوضوح في شكل من أشكال السلام والهدوء الداخليين، وشعرت أن أنفاسي تباطأت وتهدأ مع انتهاء دموعي. لقد واجهت حالة من الغضب الحقيقي اليوم في مكان ووضع غير متوقع بالمرة، من كان يظن أن حديقة الأطفال سوف تجلب عليّ كل هذه المشاعر المختلفة والغضب الشديد. لقد واجهت جانبا آخر من السرطان، الجزء الذهني منه! الذي يجد فرصته للدخول إلى العقل عند استراحة الجسد قليلا من تدافع الأدرينالين الشديد المستمر. غسلت وجهي وقلت في سري "مفيش مشكلة! المرة الجاية حتبقى مستعدة أكتر، المرة الجاية مش حخاف من الغضب، مش حخاف من مشاعري، مش حخاف من الشيطان ".

"عزيزي الغضب.. أنا شايفاك.. وحسيطر عليك ".

وتذكرت حديث رسول الله : "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ".

لقد جربت كل ما تعلمته من كيفية توجيه غضبي من شعور سلبي إلى مجموعة أكثر إيجابية من المشاعر عندما وصلنا إلى حائط سد في العلاج، فبالرغم من كل العلاج الكيميائي والعمليات الجراحية كان السرطان ما زال لا يستجيب بالشكل الذي تمنيناه! وجدت نفسي أحزم الحقائب لنا جميعا قبل سفرنا المتوقع بثلاثة أسابيع إلى مدينة سان فرانسيسكو، فكان هناك أمل في نوع من العلاج والذي لم يتم اختباره بعد. وكعائلة اتخذنا القرار بأنه بغض النظر عما سيحدث، فسنعمل جاهدين على البقاء معًا دائمًا في كل خطوة من مراحل العلاج .

حان الوقت لتغيير مجرى الأحداث! فقد اتخذت وقتًا كافيًا من حياتي لأدرك أنني أجبرت على التعامل مع السرطان يوميًا، نتنقل من علاج إلى آخر ومن أثر جانبي إلى آخر. وقد حان الوقت لاستعادة حياتنا جميعا! وهو ما يعني عدم التعامل فقط مع آلام السرطان، بل يشمل

كل ما في حياتنا اليومية ونتعامل معه كجزء من روتيننا اليومي! فكنت أقول لنفسي "إيه يعني عندنا سرطان؟ إيه يعني الأرقام والإحصائيات صعبة وتلخبط؟ ما ناخد إجازة؟ ".

على الرغم من أنها رحلة للعلاج فقط وليست للترفيه، ولكن ما يمنعنا من الاستمتاع بها على القدر المستطاع، أن كل شيء يكمن في قوة العقل والطريقة التي ننظر بها إلى الأشياء. نعلم أن الله اختارنا لهذا الابتلاء، وهذه التجربة ليست عقابًا، ولكنها نداء! فطالما كنا نبذل قصارى جهدنا كآباء، ونتمسك بالحق ونقف في وجه الخطأ، ونشعر ببركات ونعم في حياتنا مهما صعبت الحياة! هذا لا يمكن أبدا أن يكون عقابا، ولكنه اختبار.. كل ما أتمناه أن نكون عند حسن ظن ربنا بنا في هذه المسئولية وهذا الاختبار. لذلك نحن هنا في مهمة وهي أن نأخذ السرطان في إجازة !

كانت تفاصيل علاج الـ MIBG الذي نسافر له من أجل علاج زين تتطلب عزله في أوقاتٍ كثيرة في غرفة، وبعد قراءتي لكل التفاصيل التي شملها شعرت بالارتباك الشديد والقلق مما كنا مقبلين عليه. كما لو أن كل ما حدث حتى الآن لم يكن كافيًا، ولكن الآن يجب أن نترك كل شيء خلفنا، نذهب إلى المستشفى حيث لا نعرف أحدًا، نتحمل عذاب عدم القدرة على لمس طفلنا لمدة أسبوع كامل، يجب علينا أن نتواصل من خلال مرآة نرى فيها انعكاس وجوهنا من وراء جدار حديدي يمنع انتشار المادة الإشعاعية في جسده! كان من المخطط أن يكون زين على الفراش طوال فترة العلاج بلا تحرك حتى تعود نسب جسده إلى طبيعتها ويعلن الفريق الطبي أنه "آمن " ليكون بين الناس مرة أخرى. مجرد قراءة هذه الكلمات وإدراك الفصل الجديد من رحلة العلاج الذي يجب علينا أن نتحمله كان كافيًا لإغراق قلبي بالحزن .

ظهرت مشاعري على وجهي بينما كنت أحدق في شاشة الكمبيوتر، وأجلس في وسط أكوام وأكوام من الورق أعاني من مزيج من العواطف والتفكير في رحلتنا إلى سان فرانسيسكو .

فجأة سمعت صوت زين بجانبي قائلًا : "ماما، إنتي كويسة؟ ".

لم أشعر بوجوده بسبب تركيزي في التفاصيل وقلت : "آه يا حبيبي بتسأل ليه؟ ".

زين : "شكلك قلقان وجد قوي كدة ".

أنا : " مفيش بفكر في سان فرانسيسكو بس، إنت إيه رأيك في الرحلة دي؟ ".

زين : "هو إحنا نعرف حد هناك أو عندنا صحاب؟ ".

أنا : " لأ، بس إحنا دايما بنعمل صحاب في أي حتة بنروحها ".

زين : "أنا متأكد إن كل حاجة حتبقى حلوة ".

كانت نبرة الثقة في صوته قوية فرددت عليه : "إن شاء الله طبعا، بس إيه اللي خلاك متأكد قوي كده؟ ".

زين : "عشان فاكرة يا ماما أنا رجعت كتير إزاي بعد جلسة الكيمو التالتة؟ وإزاي كنت تعبان وموجوع بعد العملية؟ بس خلاص دلوقتي كله خلص. سان فرانسيسكو مش حتبقى أوحش من دول وحتى لو، حتخلص برضه.. ممكن أروح ألعب بالآي باد؟ ".

ابتسمت وأومأت برأسي، واكتشفت أني حصلت على إجابتي بكل سهولة! فقد أوضح لي ابني البالغ من العمر 6 أعوام كيف أنه لا يتم إعطاؤنا أكثر من قدرتنا. نظرت إلى زين وهو يخرج من الغرفة وقلت في عقلي : "الواد جاب من الآخر! فاهم الدنيا أحسن مني ".

وكانت سان فرانسيسكو نقطة تحول لعائلتنا. فقد حان الوقت العملي لتطبيق كل ما نؤمن به وكنا دوما نتحدث عنه. حزمت الأنوف الحمراء مع جميع الأدوية، وذهبنا.. كنا وحدنا في مدينة جميلة ولكن واقعها قاس جدًا !

كان العلاج جسديا أخف مما قبله، ولكن نفسيا يعتبر من أصعب المراحل التي مررنا بها! فقد أخفت جدران الغرفة الملونة طبقات من الرصاص والحديد الخاص المصمم خصيصا لاحتواء الإشعاع وحماية المرضى في المستشفى! من يصدق أن زين، هذا الطفل الصغير الذي يقاتل من أجل حياته، يعتبر خطرًا على كل من حوله بسبب كمية الإشعاع التي يحملها جسده الضعيف. تبادلت أنا وتامر الأدوار يوميا فقد كان أحدنا نائما على الكرسي غير المريح في الردهة فبالرغم من أنه لا يمكننا أن نترك زين بمفرده في الغرفة كان غير مسموح لنا بلمسه! كل يوم، كان أحدنا يقضي اليوم مع ملك، لنخرجها ونريحها

بينما الآخر يلبس زيا يشبه حرفيا زي رائد الفضاء، ليبقى محميًا من المادة الإشعاعية النشطة، ويسلي زين من خلف الجدار الرصاصي ويتواصل من خلال الانعكاس في مرآة السرير الجانبية، كنا نمارس قراءة القصص بصوت عال أحيانا، ثم نطفئ الأنوار ونستخدم العصي الصغيرة التي تتوهج في الظلام للعب أحيانا أخرى .

كلما نام زين قليلا كنت أذهب للمشي في شوارع سان فرانسيسكو الجميلة، لم أكن أبدا الشخص الذي يستطيع الجلوس وحده في مطعم، فأنا أحب الناس وأستمتع بالحياة أكثر بهم! لذا، كنت أمشي في شوارع سان فرانسيسكو المزدحمة وأستنشق إحساس الحياة من الناس حولي. اخترت ركنًا بجوار المستشفى أطلقت عليه الركن السعيد، حيث يمكنني الجلوس وتناول الغداء يوميًا أثناء مشاهدة الناس يتحركون حولي. كان الهواء البارد في سان فرانسيسكو في منتصف يوليو الذي يضرب وجهي في منتصف النهار ينبهني دائمًا بضرورة التنفس بعمق! كأنه يقول لي : "استمتعي باللحظة وتنفسي !".

في كل مرة أشعر بالاختناق من جدران المستشفى في تلك الزاوية الصغيرة المخصصة للآباء أثناء العلاج، أخرج وأعمل جاهدة لتوجيه غضبي إلى طاقة إيجابية. وبدلًا من التركيز على مصاعب الرحلة كنت أجلس أتصور خط النهاية في هذا الماراثون! أهرب إلى ركني السعيد في سان فرانسيسكو، وأتصور رموش عين زين تعود وتحمي عينيه الكبيرتين السعيدتين، كنت أتخيل وجنتيه تمتلئان من جديد، ويعود لهما اللون الوردي وأبتسم. ربما لا يكون الأمر قريبا لكن كل يوم يمر يقربنا أكثر من خط النهاية. استطاع السرطان أن يأخذ كل ما أعرفه في حياتي، أخذ حياتي كلها! ومن المؤكد أن الحياة كما عرفتها لن تعود مرة أخرى، ولكن هناك شيئًا واحدًا لا أستطيع السماح بحدوثه! أن يسرق السرطان أملي! فقد كان الأمل والإيمان هما كل ما تبقى لي ولن أسمح للسرطان بأخذهما مني، أبدًا !

كانت لحظة كبيرة في نهاية رحلتنا عندما جاء اليوم العظيم حيث خرج زين من غرفته لأول مرة بعد الانتهاء من علاجه، وكان ذلك بعد 9 أيام من العزلة وهو لا يتحرك على السرير! لقد انتظرنا جميعًا على بابه بينما الممرضة كانت تزيل الأجهزة والأنابيب، وفجأة توقف بكاؤه المؤلم ووقف! أعددت الكاميرا ووضعت شريط فيديو لتسجيل اللحظة عندما خطا بقدمه أخيرا خارج غرفته وابتسامته الكبيرة على وجهه، وكأنه

محارب منتصر لا ينظر خلفه على الغرفة المبطنة بالرصاص والحديد أو تجربة العلاج السخيفة !

استمتعنا بسان فرانسيسكو والحياة التي سُرقت منا لمدة يومين كعائلة سويًا، ذهبنا إلى جسر البوابة الذهبية، تنزهنا وتصورنا واحتسينا شوربة السمك الشهيرة، لم يكن لدينا أي فكرة عما إذا كنا فزنا بتلك المعركة، أو إذا كان هذا العلاج ناجحا، لكننا عرفنا شيئًا واحدًا؛ وهو أننا كعائلة، نجحنا في ذلك معا. تعلمنا أن نسيطر على غضبنا ونوجهه إلى أفعال إيجابية، وطبقنا ما كان زوجي يقوله دوما وهو أنه يجب علينا دائما تحويل كل شيء سلبي إلى شيء إيجابي! وكان هذا في حد ذاته شيئا لن يستطيع السرطان أبدا المساس به .

لا مكان للحدود !

"عندما نتقبل حدودنا،

نذهب إلى أبعد منها ".

ألبرت أينشتاين

أكتوبر 2013:

كان يومًا مهمًا، تعمدنا أن نصل في وقت مبكر إلى المدرسة في ذلك اليوم، إنه آخر يوم في المدرسة إلى مدى غير معلوم! لم يكن وداعًا ولكن إلى حين لقاء آخر، كنا مستعدين ذهنيًا وجسديًا للجولة التالية من المعركة، قرر الله أن يختبر صبرنا وأجبرنا على الانتظار، فبقدر ما أردنا التحرك بسرعة والاستمرار في مهاجمة السرطان بالعلاجات المختلفة بعد سان فرانسيسكو، لم يكن جسد زين جاهزًا بعد .

MIBG
كانت "استراحة " إلزامية لمدة شهرين. ولكننا نوعا ما أوجدنا طريقة للاستمتاع بها والتمتع بكل لحظة! بالرغم من العناية اليومية للجهاز في صدر زين، وعمليات نقل الدم التي لا حصر لها، ورحلات الطوارئ إلى المستشفى كلما أصيب زين بالحمى، ولكننا رقصنا، وغنينا، استمتعنا بمشاهدة الأفلام على الأريكة في منزلنا، استنشقنا واستمتعنا بالحياة بكل شكل ممكن، ولكن الوقت قد حان لنعود إلى ما سميناه أنا وتامر بـ "ميدان
المعركة
"!

ذهب زين إلى فصله وحيَّا الجميع بحب. نظر إلينا وابتسم، بينما كنا نقف في ركن من أركان الفصل نراقبه بصمت، تبادلنا حديثا صامتا أكدنا فيه لبعض أن كل شيء سيكون على ما يرام. ووقف أمام أصدقائه وتحدث بابتسامة كبيرة وقال : "النهاردة آخر يوم ليا في المدرسة، أنا لازم أروح المستشفى بكرة ومش عارف أنا راجع إمتى. بس أنا حذاكر وحتعلم لعب جديدة عشان لما أرجع أعرف كل اللي عملتوه وأوريكو اللي أنا عملته ".

عندما كنت في سن الثالثة والعشرين، وكان زين جنينًا، تصورت وقتها الخطابات المدرسية مقترنة بالجوائز أو الشهادات، لم أكن أظن أبدا أن عليّ أن أجهز ابني للتحدث بصراحة عن مرض السرطان، وأنه سيتعامل معه كجزء من الحياة. أحسست بالفخر الشديد في تلك اللحظة، بالنظر إلى هذا الرجل الصغير الذي ربيناه، واقفا بكل ثقة يطمئن زملاءه وهو في نفسه محتاج للطمأنينة. لم أكن واثقة أن كل شيء سيكون على ما يرام، بالعكس.. الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه ومتأكدة منه هو إحساسي بالخوف. كان الخوف هو الإحساس الوحيد المؤكد في هذه اللحظة. كانت الراحة قبل هذه المرحلة مطلوبة، وكان الخوف هو الوقود والأدرينالين الذي يسيرها حتى نستمر في المعركة التي لم تتوقف أبدا .

كانت وحدة زرع النخاع أو الـ BMT مثلها مثل الأرض المهجورة، مظلمة ومخيفة. عندما كنا نمر بجانبها في المستشفى نمر سريعا، بسرعة لم نتجرأ أبدًا على النظر إلى أبوابها حتى، سمعنا عنها لكننا لم نرغب أبدًا في زيارتها. إنها أرض العزلة! فجميع الأطفال خلف هذه الأبواب ليس لديهم جهاز مناعة ويتم عزلهم حتى تحدث -حرفيا-معجزة! منظر جميع الآباء وهم يخرجون من هذه الأبواب المزدوجة الضخمة موحد! يميل عنقهم إلى أسفل، نظرة الهزيمة على وجوههم، أكتافهم متدلية كأنهم يحملون أثقالا. كنا نعلم أنه لا مفر من زيارة هذه الأرض، مهما حاولنا التحدث عنها مع طبيبتنا باتت مادة الحديث بشعة ومخيفة. كان أملنا الكبير في مكافحة كل ما تبقى من ورم الخلايا السرطانية وكنت طالما أسرح وأقول : "يا فرحتك يا رضوى، مش بس ابنك عنده سرطان لأ! ده نادر وعلاجه من أطول وأسوأ أنواع السرطانات! المفروض ناخد جايزة الصراحة !".

كانت خطتي -وقت حملي في زين-أن أكون أما ظريفة، ممتعة، مليئة بالحيوية، صديقة لأطفالها. سوف أنظم أفضل حفلات أعياد الميلاد على الإطلاق، وأخطط لأروع أنواع اللعب وأكثرها متعة! سوف أعطيهم أفضل ذكريات الطفولة، ولكني لم أفكر أبدًا أن مواهبي المبدعة ستختبر في تطبيقها على طفل صغير عمره 6 سنوات سيظل عالقًا بين 4 جدران! كيف يفترض أن نشغل طفلا منعزلا داخل غرفة واحدة لأسابيع وشهور؟ ناهيك عن طفل مريض يمر بالألم !

كان خوفي هو الشيء الوحيد الحقيقي الذي عرفته وكرهته كثيرًا! وفي هذه المرحلة كرهته أكثر من السرطان! ظللت أقرأ كل الكتابات

المتعلقة بمواجهة الخوف يوميا لأستعد نفسيا لتحدٍ لا يوصف !

في حياتنا أحيانا، لحظات لا نسمح فيها للخوف أن يغير مسار تفكيرنا! كان صباح ذلك اليوم أحدها، عندما شاهدت زين يتكلم مع أصدقائه في المدرسة وهم يسيرون في تلك الممرات ويلوحون له أحسست بقوة غريبة، مشى زين وهو غير واثق في الخطوة القادمة، الحقيقة أني لم أكن أعرف الكثير أيضا. لم أكن أعرف إلى متى سنظل في المستشفى، ماذا سيكون رد فعل زين للعلاج، إذا كان سيشفى من السرطان أم لا، وكيف سنبقيه مشغولًا طوال هذه الفترة، لكنني كنت أعلم مدى ثقة زين فينا، وقدرته على الصمود طوال الفترة الماضية بكل صعوباتها، ابتسامته الجميلة التي تضيء الغرفة، وقبل كل هذا يقيني في الله! كيف أشك للحظة أن الله سيتركنا بعد أن كان بجانبنا في كل ما مضى؟ ببساطة لن أسمح لمخاوفي أن تسرق إيماني .

بالرغم من أن الخوف إحساس طبيعي لكنه سيعيقني أكثر من أن يغير أي شيء. لأنه خوف من مجهول، من مرحلة لا نعرف عنها شيئا .

ومن أجل هذا كله قررت الصمود! نهضت ومشيت وأنا أحزم الأشياء التي يمكنني أخذها معي إلى المستشفى، قررت تغيير الشيء الوحيد الذي يمكنني تغييره وهو خوفي! حولت طاقة خوفي إلى طاقة إيمان، وتذكرت قول الله سبحانه وتعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا ايها الذين امنوا استعينوا بالصبر و الصلوة ان الله مع الصابرين)

صدق الله العظيم

لم تكن الـ BMT سهلة ولا أسعد مرحلة في حياتنا، فقد كان الأمر أصعب من ذلك! فقد غادرنا منزلنا ونحن لا نعرف متى سنعود، أو إذا كنا سنعود إليه من الأساس! كان الخوف أكثر من أي وقت مضى، فقد كان العلاج الكيميائي بجرعات عالية عنيفًا وقاسيًا وكافيًا لإنهاء حياته. كان من الممكن أن يسبب الكثير من الآثار الجانبية مما

لا يمكن الجسم أن يحتملها وقد حاولنا جاهدين تجنب هذه المرحلة ولكن العلاج الكيميائي بهذه الجرعة العالية آخر أمل في القضاء على نوع السرطان المتمكن من جسد زين. لم يكن لدينا خيار! ونريد أن ننتهز

كل فرصة ممكنة للقضاء على السرطان. جزء آخر من الصعوبة كان في ملك ووضعها من كل هذا فلم نتمكن من تقديم إجابات دقيقة لها. لا يمكننا الكذب عليها، وقلنا لها إننا لسنا متأكدين متى سيعود إلى البيت ووعدناها بأننا سنحاول بأقصى ما نستطيع أن نساعد زين لكي نعود جميعا إلى البيت بسلام، ووعدناها أنها ستذهب لزيارة أخيها في أقرب وقت كلما سمحت الظروف .

كان استقبالنا لأرض وكوكب الـ BMT أو كوكب التعليمات والأوامر حافلا! مليئا بالأحذية الزرقاء المعقمة والتدريب على غسل اليدين قبل دخول أي غرفة، كان كوكبًا باردًا وسخيفًا. لا يوجد شيء ممتع هنا! كانت مجموعة من الغرف كل منها بداخلها طفل بلا جهاز مناعة. وبالرغم من خوفنا من هذا كله لكننا كنا مستعدين، وراغبين في الانتهاء من هذه المرحلة سريعا! وبغض النظر عن مدى استعدادنا، كانت أيامنا هناك بعيدة كل البعد عن السعادة والراحة.. بالعكس! حاولنا أن نبقى مشغولين ونستمتع نوعا ما بحياة طبيعية، فقد كان لدينا جدول يومي، حددنا أوقاتًا في النهار للعمل المدرسي، ثم في المساء للأفلام وحفلات السمر داخل غرفتنا. غنينا ورقصنا داخل غرفة BMT وحاولنا قدر المستطاع الاستمتاع كثيرا! لكن هناك أوقاتًا يجب عل أن أذكِّر فيها نفسي أنه لا داعي للترفيه عنه طوال الوقت، وأن الشعور بالتعب جزء لا يتجزأ من التجربة. كان جسده يملي إرادته علينا جميعا في بعض الأحيان ويرفض اللعب. وكان الإيمان هو تحقيق التوازن بين سرعة التعامل مع أحداث اليوم وتقبل وقوف الزمن أحيانا.. وبينما كنت أرغب في استخدام الأدرينالين المتسارع في عروقي وأستمر في إقامة الحفلات اليومية في غرف المستشفى، وقراءة القصص ولعب الألعاب المختلفة، ولكن إرادة جسدي كانت أقوى من إرادتي، وصوت الإرهاق البدني والنفسي أعلى من أي شيء .

وصلنا إلى 21 يومًا بعيدين عن منزلنا، في غرفة مستشفى باردة بلا قلب، مع سموم تتسرب إلى جسد ابني ورائحة المطهرات والمعقمات في كل مكان حولي ! 21 يومًا وأنا وتامر نبدل كل ليلتين، حيث يقيم أحدنا في المستشفى ويذهب الآخر إلى المنزل، اختفى استقرارنا وتعبت حياتنا بشكل عام! كان هذا هو أطول وقت انفصلنا فيه كعائلة عن بعض .

بعدما شاهدنا برنامجنا المفضل عن الطهي (cake boss) طلب مني زين النزول من سريره وتركه لينام، حاولت قدر المستطاع الحصول على

ابتسامة منه، أو اللعب معه، أو جعله سعيدًا لكني فشلت. أغلق عينيه، وقال بصوت خافت : "أنا كويس يا ماما، مش عايز حاجة، أنا عايز بس أنام !". لقد وجد الاكتئاب طريقه إلى قلبه الصغير، فبغض النظر عن مجهوداتنا لإسعاده أو قوة تحمله فقد كان لا يزال طفلًا مريضًا ومتعبًا من التعلق بالكثير من الأسلاك والأنابيب، عالقًا في غرفة مستشفى بعيدًا عن الحياة! هناك لحظات أشعر فيها أني قادرة على تغيير العالم من خلال تلوين جدران غرفته، ولحظات أخرى عندما أنزل بهدوء من على سرير ابني وأراقبه من ركن في غرفة المستشفى .

فشلت محاولاتي أن أنام بسبب شعوري بالعجز لعدم قدرتي على مساعدة ابني، بكيت وظللت أبكي! في تلك الليلة .. 29 أكتوبر 2013 ، بعد أن نام زين اتصلت بتامر وهمست على الهاتف كي لا أوقظ زين :

أنا: ده مكتئب قوي يا تامر دخل ينام ومش عايز يصحى .

تامر: أنا عارف، حسيت من يومين بإنه مش متظبط، بصي ممكن نغير الأودة شوية، بكره لما آجي أزق سريره الناحية التانية وأجيب معايا لعبة الويي بتاعته، ممكن كمان أنزل لعب جديدة على الآي باد لما أجيله .

أنا: طب يارب كل ده ينفع! أنا نفسي أروح بيتنا قوي بقا! وحشني قوي نكون مع بعض .

تامر: أنا عارف والله معلش! اصبري إوعي تضعفي .

أنا: ماشي ححاول أنام وحعرفك اللي بيحصل هنا بالليل، حبقى أكلمك الصبح، بوسلي ملك .

ولكن بدلا من النوم في تلك الليلة.. تحدثت إلى الله! لقد تحدثت معه بكل كياني، لم تكن صلاة طبيعية بسبب اليأس أو الخوف أو بحثا عن الأمل كما كنت أصلي من قبل. لقد مررت هذه الليلة بشعور لم أشعر به من قبل، شعرت أن دموعي تغسلني من الداخل. جلست هناك على ركبتي أتوسل إلى الله وأنا أشعر بقمة العجز والحزن لكن نوعا ما غير فاقدة للأمل. جلست هناك على سجادة الصلاة أتحدث إلى الله بكلمات حقيقية، باللغتين الإنجليزية والعربية. أستيقظ وأصلّي، ثم أجلس وأتحدث معه. أخبرته أني خائفة على معنويات زين، وأنني أفتقد بيتي وأخبرته أنني متعبة! أخبرته أنني خائفة من الشكوى إليه

ليس اعتراضا على قضائه، لكنني ضعفت وأن الضعف من طبيعة الإنسان. رجوته أن يساعدني، أن يظهر لي معجزة ولو صغيرة، ليثبت خطأ الأطباء! قلت له وهو يغسل وجهي وروحي بدموعي أن الأطباء أكدوا لنا أن نسب دم زين لن تتحسن سريعا، وبالتالي لن نعود إلى بيتنا أو نتجمع كعائلة قريبا! لن أرى زين وملك يلعبان في غرفة واحدة، لن أجلس أنا وتامر نُعد جدول الغد .

بكيت وبكيت ولم أشعر بالوقت. كنت ممسكة بالمصحف ولكني لم أتمكن من قراءة أي شيء، كانت عيناي متورمتين من البكاء وكنت أعلم أن تامر يفعل الشيء نفسه في المنزل، كان كل منا يشعر بالآخر، ولكننا نختار اللحظات لنقوى ببعض بدلا من الاستسلام .

لقد تحدثت إلى الله كثيرًا في تلك الليلة، لكن كان السرطان دائما يجد طريقه لإلحاق الهزيمة بنا. ربما ليس من خلال المرض الفعلي ولكن هذه المرة كانت من خلال السيطرة على نفسية زين. نظرت إلى السماء وتحدثت مع الله، وضعت جبهتي على الأرض وتحدثت إليه، وأمسكت يد زين ببطء أثناء النوم، وتحدثت معه! كانت ليلة تعمقت فيها بداخل نفسي وروحي، وبكيت حتى مرحلة الألم، وتحدثت حتى نفدت الكلمات. كنت مدركة أن الممرضات يدخلن ويخرجن لكنني لم أكن على علم بأي شيء من حولي إلا هذه القطعة الصغيرة من الكون التي كنت فيها وحدي مع الله وابني المريض! حتى أشرقت الشمس وكان أوان النوم قد فات! بعد الصلاة حررت جسدي المتعب وجلست في زاوية بجوار النافذة أشاهد العالم الخارجي! جاءت الشمس مرة أخرى، ورأيت الناس يذهبون إلى العمل، وبدأت السيارات تتحرك إلى وجهاتها وبدأت الحياة في يوم جديد مرة أخرى كما لو أن شيئا لم يتغير! ثم فجأة، وبينما أنا مرهقة من الليلة الماضية، جاءتني إجابة الله في أبسط شكل وغير متوقع على الإطلاق! على لسان عالم، طبيب، شخص ألحد بالأديان واختار العلم دينا .

كان زين نائمًا عندما دخل الدكتور (F) يمارس جولته على المرضى في الصباح، وكانت عيني المتعبة تعاني لتراه، من حطام الليلة السابقة. سمعت صوته الهادئ حاملا رسالة مليئة بالأمل قائلا : "في حاجة غريبة حصلت النهاردة على الفجر، عينة الدم اللي الممرضات أخدوها بينت إن نسبة كرات الدم البيضا بدأت تزيد ودي حاجة عمرها ما حصلت قبل كده في الوقت ده! دي نسب نتوقعها كمان أسبوعين من دلوقتي. أنا بصيت على كذا حاجة، طالما نسب الدم بدأت تتحسن أنا

شايف إنكو ممكن تروحوا ".

لم أشعر إلا وأنا أقفز من مكاني وأحتضنه بشدة، في مزيج من الارتباك، وعدم النوم وغطاء رأسي الذي أحاول ألا يقع. لم أستطع أن أصدق أو أفهم ما سمعته للتو! في دقائق قليلة انتشرت الأخبار داخل المستشفى، أصبحنا العائلة الأولى التي تغادر كوكب الـ BMT! على الرغم من أنهم كانوا أطول 21 يومًا مررنا بهم، لكن هذا لم يعتبر شيئًا في عالم BMT حيث يقيم الأطفال هناك لمدة تتراوح بين 2- 6 أشهر وأحيانًا سنوات حتى يستعيدوا صحتهم !

تحولت الغرفة إلى غرفة "الإجراءات السعيدة " لإنهاء إقامتنا، بدأت في إمضاء الأوراق التي لا تنتهي والمليئة بالتعليمات الوقائية لزين في المنزل! كان تامر يصرخ من الفرحة على التليفون شاكرا الله بصوت عال. أما أنا فلم أكن أحتفل فقط بالانتصار على توقعات السرطان في هذه الجولة من المعركة، فقد فرح قلبي بانتصار أكبر !

فقد تحدثت إلى الله وسمعني وأجابني ولم يخذلني !

قطار الملاهي السريع

"قد نواجه الكثير من الهزائم ..

ولكن يجب ألا نُهزم "

مايا أنجلو

هل جربت إحساس العودة إلى المنزل ومعك مولودك الأول؟! مزيج من السعادة والفرح والخوف والحذر كل في آن واحد. كان هذا بالظبط إحساسنا ونحن في طريقنا للبيت بعد العزل داخل غرفة الـ BMT الباردة. فقد نجونا من جرعات العلاج الكيماوي العالية والعزلة والضغط الجسدي والنفسي، لكن الاختلاف الوحيد في هذه المرة هو أن هذا المولود الجديد واعٍ ويتحدث ويتفهم. لقد تم محو نظام المناعة عند زين بالكامل! لا شيء لمقاومة أي فيروسات أو بكتيريا! حرفيا قد يقضي عليه دور الانفلونزا! تم محو كل التطعيمات نهائيا، كان الأمر أشبه بالبداية من الصفر، مثل طفل جديد .

عُدنا إلى منزلنا، لكننا لم نشعر بالحرية التي تخيلناها. كنا في حالة تأهب قصوى لمدة 100 يوم بعد عملية زرع النخاع. زياراتنا إلى المستشفى منتظمة لنقل الدم، ندخل ونخرج وعلى وجوهنا الأقنعة المعقمة ونعود إلى منزلنا سريعا مانعين أي زيارة نهائيا. كان زين ممنوعا من العودة إلى المدرسة، وتجمع الأطفال حوله شيئا مستحيلا! كل ليلة بعد أن أضع الأطفال في غرفتهم للنوم أشعر كأني فقدت قطعة جديدة مني! كنت أبذل قصارى جهدي لتخطيط الأشياء الممتعة كل يوم في المنزل، لإبقاء العزلة في المنزل ممتعة وأكثر تفاعلية ومثيرة للاهتمام.. لكني كنت منهكة للغاية! وكأني في سباق لا ينتهي وكان التوقف والراحة هو كل ما أتمناه .

تمنيت الحصول على بعض السلام والراحة، لكن هذا السرطان اللعين كان عنيفا وخبيثا ليسرق راحتنا دوما! كان مثل ركوب قطار الملاهي السريع فأنت لا تملك السيطرة! ومهما تصرخ كي تتوقف فلن يسمعك أحد. لم أفهم أبدا حب الناس لهذه اللعبة السخيفة؟ ما هو الممتع في أن تفقد السيطرة تماما وتقترن حياتك بماكينة هي التي تحدد متى وكيف تتحرك؟ لكن لعبة القطار السريع حقيقية مثل السرطان بالنسبة لي، الفرق الوحيد هو أن التقلبات حقيقية وشديدة للغاية! لقد مررت

بمشاعر مختلفة، كل منها عميق ومركز وكأنه هو الإحساس أو الشعور الوحيد في حياتي .

الغضب.. كان الغضب دائم الزيارة، فهو يجيء ويذهب في حياتي كما يحلو له وكانت من مفارقاته أنه بالرغم من قوته كان من أكثر المشاعر توقعا وحدوثا. كنت أراه وأشعر به، وتعلمت بعد 9 شهور من مقاومة السرطان أن أتركه يأخذ وقته عندما يحدث؛ لإن الغضب خصم عنيد ومن أصعب المشاعر التي تستطيع أن تحتويها وتسيطر عليها.
وبالرغم من هذا تقبلته وتعاملت معه ولم أخجل يوما من التعبير عنه. كانت تنتابني نوباته العنيفة، التي أفقد فيها السيطرة على أعصابي بسهولة من أي شيء وأي شخص حولي. تعاملت معه بالكتابة أحيانا والتحدث عنه أحيانا أخرى، بل بدأت أنوه عنه لتامر عندما أشعر به يقترب. مشاعر كثيرة تجمعت وكوّنت إحساس الغضب والعدوانية في التعبير أقلها التعب والإرهاق والصدمة، فبالرغم من مرور الوقت ولكني ما زلت لا أفهم لماذا أصبح السرطان جزءا من حياتنا؟ لم أتساءل قط ولكني لم أفهم! كان خوفي هو السبب في عدم سؤالي. وكان خوفي وعدم سؤالي وعدم فهمي لحياتنا الجديدة سببا لغضب دائم لم أستطع السيطرة عليه. فكان الغضب أسهل من التساؤل! خفت أتساءل كي لا أغضب الله أو يفسر تساؤلي وكأنه اعتراض على ما كتبه لنا. فقررت أن أعيش في غضب بدلا من التساؤل .

الخوف.. كشف الخوف نفسه لي بطرق مختلفة وأشكال متعددة كل يوم. كنت أستيقظ من نومي في منزلي خائفة من أن يعود المرض إلى زين وينتكس مرة أخرى، ومن أن أفقد راحة منزلي وأضطر للعودة إلى المستشفى، وكنت من خوفي أقوم بطهي الوجبات بكميات كبيرة خوفًا من أن أعود إلى المستشفى وأفتقد الأكل البيتي. كنت أراقب أولادي وهم يتحركون ويتكلمون سويا في خوف وأتساءل كيف سيكون الأمر إذا فقد أحدهما الآخر. أدركت كم أخشى كل شيء حولي وقد أظهر الخوف نفسه في أكثر الأماكن غير المتوقعة على الإطلاق! كنت في متجر الملابس في قسم التخفيضات! وقفت أنظر إلى ملابس الأطفال المخفضة، وأتساءل إذا كانت فكرة جيدة أن أستغل هذه التخفيضات وأشتري ملابس الموسم القادم ومقاسات أكبر لأولادي! ولكن كان صوت الخوف أعلى في عقلي قائلا ماذا لو لم يعش زين للموسم القادم؟ ماذا لو اشتريت هذه الملابس ولم أره يكبر ليستخدمها؟ لم أكن أتخيل أن تيشرت بقيمة 4 دولارات سيزعجني لهذه الدرجة ووجدت نفسي أركض إلى غرفة القياس وأبكي بحرقة

من كل قلبي! فقد كرهت الخوف! لقد كرهت سيطرته عليّ وعلى أعمق مشاعري. أسكت الخوف جميع الأصوات في رأسي وكان صوته أعلى منها جميعا! تيقنت أن الخوف هو أسوأ عدو على الإطلاق! إنه أسوأ جزء من القطار السريع. كنت دائمًا أكره وأبغض لحظة الترقب ولعبة الملاهي تعلو والخوف يتزايد من حولي أكثر من لحظة السقوط والانعطاف بسرعة. لقد كرهت الشعور بالخوف الذي يحيط بي كرهت قلقي الدائم وخوفي مما يمكن أن يحدث. حتى سؤال لماذا يحدث كل هذا لنا، خفت منه كي لا يظن الله سبحانه وتعالى أني أتحداه أو أعترض على قضائه، لا أستطيع تحمل غضب الله بل سأظل أرجو رضاه .

لقد سيطر عليّ الخوف بطريقة عنيفة لدرجة أنه أثر في الطريقة التي أتسوق بها؛ والطريقة التي أفكر بها، بل حتى الطريقة التي أتحدث بها إلى الله. شوّش إحساسي وجعلني أعيش في خوف مستمر من التحدث إلى الله كي لا أكون أتحداه. كان هذا الانهيار الذي حدث لي في منتصف المتجر في حد ذاته نعمة من الله ونقطة تحول أوضحت لي الكثير. فالله سبحانه وتعالى لا يختار أبدا أن يلحق بنا الأذى، فقد كان بجانبنا طوال الطريق لإرشادنا في أكثر المواقف صعوبة والتي

لا يمكن تفسيرها! لقد سُمح لي في هذا اليوم بفرصة أن أدرك مخاوفي وأواجهها، سُمح لي بفرصة لفهم مشاعري والتعامل معها، لقد أتيحت لي الفرصة لأتوقف وأحدث التغيير المطلوب! بكيت بشدة كارهة إحساسي في تلك اللحظة وجلست هناك أهدئ نفسي، وقررت أنه قد حان الوقت لكل هذا أن يتوقف! لقد كانت نقطة تحول لي في مواجهة الخوف وأن أفيق. خرجت من غرفة القياس شخصا مختلفا؛ شخصا يمكنه أن يفرق بين الارتباك والخوف، شخصا يعرف مدى قوة خوفه ومستعدا لمواجهته، شخصا ليس لديه سيطرة على الغد ولكن لديه كامل السيطرة على اللحظة الحالية. مسحت وجهي وسرت في خطوات منتصبة مع جسدي الضعيف المهزوم إلى قسم التخفيضات. نظرت إلى هذه القمصان الأكبر حجما وقررت عدم شرائها. ليس لأنني لم أكن أعرف ما إذا كان ابني سيعيش لاستخدامها أم لا، ولكن لأن ابني "معي الآن " ، وسأستمتع بهذا "الآن ". وقفت هناك أحدق في الملابس بابتسامة باهتة وقلت في نفسي : "أنا حرجع أشتري الهدوم دي لكن مع زين! زين هو اللي حينقي هدومه. مش متأكدة إن ده هيحصل لكن متأكدة إننا حنعمل أي حاجة في الدنيا عشان ده يتحقق ". فكنت متأكدة من شيء واحد فقط. وهو أني أملك

الآن! وسأستمتع الآن! ولن أسمح أبدا لخوفي من الغد أن يسرق فرحتي بنعمة اليوم. فقد اخترت.. اخترت السعادة !

السعادة.. جاءت السعادة بطريقة جديدة ومختلفة تماما! فقد فقدت الاهتمام بالأشياء الكبيرة، بقدر ما كنت أتشوق للعطلات أو التسوق أو النزهات أو مجرد حياة اجتماعية ممتعة بشكل عام. لم أشعر برغبة في تحقيق أي من ذلك. بدأت السعادة تتعلق بالأشياء الصغيرة أكثر. كل الأشياء الصغيرة والبسيطة التي تبدو طبيعية ومن السهل جدا الحصول عليها. أشياء مثل الاستحمام في المنزل، أو مشاهدة فيلم مع عائلتي، وتناول وجبة بيتي لطيفة، والاستمتاع بالألعاب المختلفة والضحكات البسيطة من القلب. أشياء بسيطة كتلك أصبحت تجلب الكثير من الحب والسعادة إلى قلبي وتساهم في السلام الداخلي المطلوب بشدة في حياتنا. كل منا يميل إلى تعريف السعادة بشكل مختلف في خلال مراحل حياتنا، وقد أخذت السعادة اتجاهًا أكثر نضجًا ومضمونًا في قلبي وأيامي بعد مرض ابني. فبعد أن يشعر القلب بذروة الألم والحزن لا يوجد سوى طريقتين للتعافي؛ إما البقاء هناك في أرض الحزن وفقدان القدرة على الخروج منها، وإما العثور على السعادة بأبسط أشكالها، مثلا في شكل قبول ورضا .

القبول.. كان القبول هو تلك الكلمة التي ارتبطت في ذهني بالعجز واليأس. فإذا قبلت وضعًا غير محبب، فتلقائيًا اعتبرت نفسي فشلت في التعامل معه. تلقائيا ظننت أنني بسبب عجزي عن تغييره انتهى بي الأمر إلى قبوله. ولكن في هذه الحياة التي نعيشها البسيطة والمعقدة في آن واحد، هناك خط رفيع يربط أو يفصل كل شيء، والقبول ليس فقط علامة على الضعف أو العجز، بل أحيانا رمز للسيطرة والقوة. فقد جاء إليَّ في أبسط أشكاله، في لحظات سعيدة بلا مجهود، أو في خطوات صغيرة ولكن ناجحة تجاه الشفاء، أو في القدرة على التعامل مع ما وصفه الجميع حولي من أنه أكبر من طاقة البشر على التحمل. وجدت القبول في قلبي مما ربطني بالسعادة. لقد وجدت طريقي لقبول قدرتي ليس بتغيير الأشياء فحسب، ولكن بتغيير طريقة رؤيتي لها. وليس في عدم قدرتي على فهم أسباب ما يحدث حولي، ولكن من خلال قدرتي على الإيمان بقوة أكبر منها تملك التحكم والسيطرة على كل ذلك. كان القبول مفتاحًا لعالم جديد تمامًا لي، وهو فصل جديد تمامًا وجميل في حياتي .

لقد مهد القبول الطريق لي لبدء كل يوم صعب ربما لا أستطيع تغييره،

ولكن يمكنني أن أحبه بكل تفاصيله بالرغم من ذلك. أستطيع أن أحب نفسي وقدرتي على التعامل معها، أستطيع أن أكره المستشفى ولكن أحب الناس به وابتساماتهم الطيبة ومساعدتهم. في مقدرتي أن أكره أن يكون السرطان الموضوع الوحيد حولي، ولكني أستطيع أن أحب كيف أصبح سببًا لكي يتحد الجميع سويا. كان لدي الحق في أن أكره الكثير من الأشياء حولي، ولكن ما زلت أملك القدرة على إيجاد الجمال وحبه في وسط كل هذا القبح .

وأخيرًا، الصبر.. لم أكن عمري شخصية صبورة، لا كأم أو كزوجة أو حتى طفلة.. ولكني أخيرًا اضطررت أن أتحلى بالصبر. طالما سمعت مقولة (الصبر فضيلة) فهو أكيد كذلك لمن يتحلى به ويمارسه في حياته، كما يمكن أن يكون في نفس الوقت لعنة ينكشف معها الكثير من العواطف المختلطة. كان الصبر هو الجزء الوحيد والشعور الوحيد غير المفروض علينا فقد كان معنا كل الحق في عدم الصبر بسبب صعوبة الاختبار، ولم يكن علينا أي لوم، ولكننا اخترنا الصبر .

وفي اليوم الذي بدأت فيه أتحلى بالصبر وقبلت حقيقة أني ليس لديّ القدرة على السيطرة على الواقع، بل لا أريد السيطرة على الإطلاق.. هو نفسه اليوم الذي تجمعت فيه كل قطع اللغز معا. كان نفس اليوم الذي زادت فيه نسبة الأدرينالين بشدة وكأني على متن لعبة قطار الملاهي، كان الصبر هو الصديق الجديد الذي يدخل حياتي لأول مرة .

وبينما كنت أنظر إلى النتيجة الميلادية وأفكر في عدد الأيام المتبقية بعد مرور الـ 100 يوم من عملية زرع النخاع، سمعت خطوات زين. كان بإمكاني أن أفهم الكثير من ابتسامة زين، يمكنني معرفة ما إذا كانت ابتسامة حقيقية، أو متعبة أو مفتعلة. كان زين مبتسما دائما! كانت ابتسامته من سماته الشهيرة وهو يتكلم، يتحرك أو ينظر إلى الكاميرا. حتى أننا لاحظنا أنه نادرًا ما يرفض التقاط الصور له، مما جعلنا نطلب منه الإذن أولًا. أردنا منحه قليلا من التحكم والسيطرة والسماح له باتخاذ قرارات حتى ولو بدت صغيرة، كنت قد بدأت أشعر بالقلق من أن وضعنا المستمر (الإيجابية، والقتال، والابتسامة، والسعادة) قد

لا يمنحه فرصة للحزن أو التعامل مع مشاعره. كنت قلقة من أنه قد يكون دائما يراعي مشاعرنا ويخاف على إغضابنا لو حزن فيدفع بمشاعره وراء ابتسامته الكبيرة. وربما كانت كل هذه تهيؤات أو قلقي الذي لا ينتهي، وربما كان خوفي من السماح له بالحزن لأنني لن

أتمكن من استعادته مرة أخرى ومساعدته في القتال بقوة. طالما تكلمت في كل هذا مع تامر، وانتهى الأمر دومًا بإيجاد حل وسط متوازن. حيث نسمح له بالتعبير عن مشاعره كلها، وتشجيعه على مشاركة كل شيء، ولكن مع النية الأصلية لإنهاء أي مناقشة بشكل قوي وإيجابي. لم نكن متأكدين مما إذا كان ما نفعله هو الصواب، لكنني لا أعتقد أن هناك "شيئا صحيحا أو طريقا صحيحا " عندما يتعلق الأمر بمساعدة ابنك على التأقلم مع مرض السرطان، لكن يكفينا شرف المحاولة !

سمعت خطواته عرفت على الفور أن ابتسامته كانت مزيفة، كان إحساسه بالقلق واضحا ومتخفيا وراء ابتسامته، وقال لي :

زين : "ماما، ممكن أدخل؟ ".

أنا : "طبعا يا حبيبي، في حاجة؟ ".

زين : "هو أنا حرجع المدرسة إمتى؟ ".

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسألني فيها هذا السؤال، فكأي طفل في الصف الأول يحب معلمته وأصدقاءه، كان يعرف أن جميع أصدقائه معا، بينما هو وحيد يأخذ دروسه مع أمه في المنزل .

تذكرت صديقي الجديد "الصبر " وأنا أضغط على صوتي بنبرة سعيدة فهو ما زال مجرد طفل يشعر بالملل في المنزل! بغض النظر عما أفعله، أو عدد الأنشطة التي أخطط لها، والألعاب التي نلعبها، والأفلام التي نشاهدها.. فهو ما زال طفلا! مكانه ليس المنزل، بل الخارج وهو يجري ويلعب ويصرخ! لكنه عالق في المنزل بجهاز مناعة أضعف من مناعة طفل عمره سنة واحدة !

أنا : "أول ما الدكتورة تقولنا إنك بقيت كويس وتقدر تخرج

يا حبيبي، ساعتها ترجع المدرسة كل يوم ومش حتغيب تاني إلا لو لازم نروح المستشفى عشان الأدوية والعلاج ".

زين : "ماما.. هي الدكتورة أقوى من ربنا؟ ".

أنا : "لأ طبعا ".

زين : "طب يبقى ليه بقا ربنا ميقولش للدكتورة إني بقيت كويس ويخليني أرجع المدرسة؟ مش هو اللي وافق وخلى الشيطان يحط كانسر في جسمي؟ ".

صدمني سؤاله وتركني أواجه الكثير من الإجابات المتناقضة في رأسي، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتساءل فيها عن سبب حدوث ذلك له، ولكنها كانت المرة الأولى التي يبدأ يحلل ويدرك كل شيء. ابني الصغير البالغ من العمر 7 سنوات فقط يعلم أن الله جميل وأن الشيطان قبيح، واقتنع أنه لا توجد طريقة يمكن أن يضع بها الله السرطان في جسمه، وأن السرطان يجب أن يكون نتاج عمل شرير! ليس هذا فقط بل استنتج أن الله لم يخلق الشر بل سمح له أن يحدث. كنت خائفة! خائفة جدا فلم أكن مستعدة، إنه يكبر ويحلل ويفهم. كل السيناريوهات التي طالما ناقشت إمكانية حدوثها مع تامر اختفت، ووجدت نفسي في بحث عن الكلمات في رأسي لأجيبه .

أنا : "ربنا حيقولها أول ما يتأكد إن جسمك بقا قوي وممكن تروح المدرسة. إنت عارف إن كله بيعيا في المدرسة بقا ويكح ويعطس، ربنا عايز يتأكد إنك تخف وتبقى كويس يا حبيبي ".

زين : "أمال خلى الكانسر ييجي ليه أصلا؟ ".

كان من الواضح أنه غاضب! ربما لم يكن يعلم أن ما يمر به هو إحساس الغضب والإحباط من وضعه، كانت لحظة سئم فيها، وشعر بالإرهاق، وبدون أن يشعر فقد اهتز إيمانه في هذه السن المبكرة. احتضنته بشدة، وتمنيت مع كل جزء من قلبي أن يكون هناك شخص آخر في الغرفة معنا في تلك اللحظة وأني لم أكن وحدي، وتمنيت أن ينتهي دوري بمجرد معانقته، كنت أرغب في وجود في شخص آخر للإجابة عليه. لكن كان عليّ أنا أن أتكلم !

أنا : "مش عارفة يا زين، أنا وعدتك إني عمري ما أنا وبابا حنكدب عليك من ساعة ما عيبت. أنا مش عارفة إنت عيان ليه وليه إنت بالذات، بس أنا متأكدة من حاجة واحدة، وهي إن ربنا جميل وكبير وإنه عمره ما حيخلي حاجة وحشة تحصلنا أبدا، ولو في حاجة وحشة فهو أكيد حيكون موجود ويساعدنا ويقوينا. أنا عارفة حاجة كمان، إنك قوي وربنا عارف إنك قوي وهو عارف إنك تقدر تكسب الكانسر وتعلم ناس كتير حاجات حلوة وقوية. إوعى تفتكر إن ربنا مش حيعوز يعملك حاجة

حلوة، لو في حاجة عايزها قوي ومش بتحصل اعرف إنها مش حلوة عشانك لسة ...".

وكأي طفل عمره 7 سنوات، ابتسم وقال : "أوكيه ممكن آكل آيس كريم وأنا بتفرج على فيلم؟ ".

هززت رأسي موافقة وأنا أقول في رأسي "بلا مفيش سكر بلا أكل صحي بلا نيلة دلوقتي! ياخد اللي عايزه واطلع من لجنة الامتحان دي والموقف ده ".

نظرت مرة أخرى إلى النتيجة الميلادية وتوقفت وأنا أحدق في تاريخ نهاية رحلة العلاج المتوقع (فبراير 2014) ، إذا مر كل شيء على ما يرام سينتهي هذا الكابوس قريبًا! ولن أضطر إلى شرح السرطان ولن أضطر إلى تبرير أفعال الشر، ولن أضطر إلى محاربة الرغبة في مجرد الاختفاء تحت البطانية والنوم! سأكتسب السيطرة نوعا ما مرة أخرى، أو من الحرية! أحببت هذه الفكرة، فهي تعطيني أملا. تخيل خط النهاية كان هدفا وأملا أسعى إليه، خاصة بعد أن أدركت أنه يجب أن أستعد بمستوى مختلف من المناقشة مع زين. فهو الآن لا يطرح أسئلة فقط، ولكنه يشكك ويحلل الحياة والإيمان !

كله بيعدي

"لا توجد متعة في القتال، ولكن بعض

معاركي كان الفوز بها متعة ".

محمد علي كلاي

مرت المائة يوم لتثبت لنا مرة أخرى نظرية "كله بيعدي " ، فعلى الرغم من كل الصعوبات والتحديات التي واجهتنا لكننا صمدنا وعرفنا أننا - كأفراد أسرة واحدة-يجب أن نسير سويا في الاتجاه الصحيح ورؤوسنا مرفوعة. بعد ما كانت خطواتنا كبيرة نحو خط النهاية وانتصارنا على السرطان كان أوضح -أو هكذا بدا لنا، تحولت خطواتنا إلى خطوات ثابتة بطيئة وكأنها لا تتحرك. التعافي أصبح قريبًا ولكنه بات أصعب .

هاجمْنا المرضَ بجميع الطرق: بالعلاج الكيميائي والإشعاعي والعمليات الجراحية وزرع النخاع وحتى التجارب الجديدة غير المختبرة بعد.. لكن كانت هناك بعض الخلايا السرطانية في نخاع العظم لا تزال مصرة على ألا تختفي. كان هذا النوع من السرطان عنيدًا وعنيفًا. وبعدما كنا نشعر بتقدم فعال في سباق سريع ضد المرض أصبح تقدمنا على السرطان بطيئًا وغير واضح. انتظرنا فحوصات زين بعد عملية زرع النخاع، آملين أن يكون العدو وجيشه قد غادروا، وجسمه أصبح نظيفا ونستطيع الاسترخاء ولو قليلا. ولكن جاءت الفحوصات لتبدد أحلامنا فقد كان بالكاد تحسن! ما زال السرطان رافضًا أن يتخلى عن جسد زين. كان مصممًا على أن يواجهنا بفشلنا. وكالعادة ذهبنا لمقابلة الدكتور ونحن نشعر بالهزيمة! اعتمدنا على أفلام الكارتون واللعب لجذب انتباه زين وملك حتى يتيسر لنا الكلام .

كان النظام الذي أتقناه أنا وتامر يدور حول فهمنا الكامل للمعلومات أولا، ثم نتدرب على ما سنقوله لزين وملك معًا، أو في حالة إن كنا سنقوله لكل منهما على حدة. كان نظامًا متقنًا ومرتبًا بخطوات

لا تتخطى أبدًا أي خطوة الأخرى، لا نتحدث معهما أبدًا قبل التحدث مع بعض أولًا، وإذا حدثت أي محادثة عندما يكون أحدنا بمفرده مع أحدهما أو كليهما، يجب علينا إبلاغ بعضنا حتى نكون دائمًا على نفس السياق. في ذلك اليوم وبعد ما بدا وكأنه عمر كامل بداخل غرفة العيادة الكئيبة خرجنا متجهين إلى سيارتنا لنبدأ رحلة العودة إلى المنزل ونحن حرفيا

منهكون . "الكلام " مع الأطفال سينتظر حتى يترك هذا الصداع النصفي الغبي رأسي أنا وتامر. معلومات كثيرة وأسئلة أكثر تدور بداخلنا وكنا على علم بأننا يجب أن نجد لحظة للحديث معًا كخطوة أولى ثم التحدث إلى الأولاد .

مهما كنت تجيد التخطيط وتضع أفضل السيناريوهات تحسبا لأي موقف، ستفاجئك بعض المواقف التي تحتاج فيها للارتجال. بدأ زين يقول : "يلا نغني أغنيتنا عشان مشينا من المستشفى بقا !". وفي صوت واحد بدأنا في غناء
Hit the road Jack, don't come back, no more, no more, no more. ثم بدأنا
الأغنية الأخرى I
am coming home, tell the world that I am coming home.

فقد أصبحتا المفضلتين لنا في كل مرة ندخل فيها السيارة وندير ظهورنا إلى المستشفى .

ملك : "ماما، هو زين خف بقا خلاص؟ ".

وطبعا، كانت أميرتي الصغيرة، الفضوليّة، المحبة للثرثرة، المتسائلة دائما، مستعدة بالأسئلة مخزنة في رأسها لفترة من الوقت ولم تستطع الانتظار. وبينما كنت أبحث عن الكلام وأفكر في كيفية الإجابة، أنقذني الأب المثالي وقال : "حنتكلم أول ما نروح يا لوكي ونجاوب كل أسئلتك ". الحمد لله، كنا بالفعل في حاجة لكسب الوقت لترتيب ما سنقوله .

زين : "يبقى فاميلي ميتينج بقا! ممكن نستعمل الـ talking stick ؟ ".

لم تكن عادته أن يذكر أبدا عصا الكلام! وفي الواقع، لقد اخترعنا عصا الكلام لنشجعهم على التعبير عن مشاعرهم، ولنجاوب أسئلتهم، ونستمع إلى مخاوفهم واهتماماتهم. فعندما يطلب زين الـ talking stick فهذا علامة على أنه لديه الكثير ليقوله .

تامر : "ماشي يبقى فاميلي ميتينج وتوكينج ستيك يا أستاذ زين ".

الليالي العائلية في منزلنا كما كنا نتخيلها مليئة بالوقت الممتع، لم

نهتم قط بقطع الأثاث الصغيرة أو الكبيرة، بل كانت مهمتنا الأولى هي أن نبحث عن كل ما هو جديد لنجعل منزلنا أفضل لأولادنا، ونجلب أحدث الألعاب والأفلام، ونستضيف أصدقاءهم في ليالٍ مليئة بالغشار والأكل والسعادة. لم نكن نتخيل أن تتحول هذه الليالي السعيدة إلى أحاديث حول السرطان. عدنا إلى منزلنا هذا اليوم وبعد تغيير ملابسنا، أغلقنا هواتفنا والتففنا كما تعودنا حول طاولة المطبخ المستديرة، سحبت ملعقة المطبخ الخشبية التي مثلت عصا الكلام، والتي كانت تتغير في كل مرة بنفس الهدف وهو حق الكلام لحاملها .

بدأت ملك : "أنا عايزة أبدأ، أنا مش بحب لما بتروحوا المستشفى من غيري، ومش بحب خالص لما زين بيروح بالليل وأنا نايمة وبصحى ملقيهوش".

لقد كانت منطقة آمنة، مكانًا صحيًا تحدثنا فيه سويا. لم يكن لدينا دائمًا إجابات لزين وملك، فقد أدركنا أن الإجابة في بعض الأحيان تكون مجرد إخبارهم بأننا لا نملك الإجابات ولكننا نفهم ونأسف لشعورهم، وأننا دائمًا هنا من أجلهم. كان أمرا مدهشا، كيف تُغير 9 شهور حياتنا بالكامل ونظرتنا لأشياء كثيرة. فبدلًا من الرغبة في العثور دائمًا على ما تقوله أو الإجابة عن سؤال ما، لجأنا إلى الثقة والإيمان في بعضنا بعضًا، كنا بالفعل لا نعلم الإجابة لمعظم الأسئلة .

لم نكن نعرف إذا كان بإمكاننا التخطيط لأي شيء في المستقبل، لم نكن نعرف متى سنتمكن من السفر ورؤية عائلتنا في مصر أو السفر إلى أي مكان على الإطلاق، لأن الأشياء يمكن أن تتغير وتسوء خلال الليل، ويمكن أن تكون زيارة لغرفة الطوارئ أمرًا لا بد منه! لم نكن نعرف لماذا كان سرطان زين عنيدا بهذا الشكل، ولم نكن نعلم ماذا سنفعل بشأنه! كان من المفترض أن يكون NED (خاليًا من السرطان) الآن! كان من المفترض أن يكمل العلاج دون وجود آثار للسرطان في جسمه، بل لم يكن من المفترض أن يمرض بالسرطان من الأساس! إذن، كل هذا التخطيط ما هو إلا ضغط نفسي غير مرغوب فيه! فأنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد. يمكن أن نخطط وننظم ولكن في النهاية كل شيء يتغير .

مشاعر مختلفة كانت تفرض نفسها على اجتماعاتنا العائلية. وكنا دائمي البحث عن النبرة الصحيحة في صوتنا وكلامنا عندما نفقد القدرة على الإجابة. ولكن في هذه المرة كان زين هو المسيطر على

الاجتماع. لم ينتظر حتى نجاوب ملك بل طلب عصا الكلام حتى يستطيع الكلام بحرية وبدون مقاطعة .

زين : "أنا عارف يا ملك، أنا كمان بكره كل ده " ثم نظر إلينا وقال : "أنا عارف إن كلمة بكره كلمة وحشة ولازم أقول مش بحب أحسن، بس أنا بجد مش مبسوط وبكره إن لسه فيه عساكر وحشين في جسمي، أنا بكره أروح المستشفى، متزعليش يا ماما والله مش قصدي.. أنا عارف إنك بتحبيبي لعب وبتعملي حاجات حلوة كتير، ويا بابا بحب أتفرج على أفلام معاك بس أنا مش بحب أروح. أنا عايز أخلص قوي بقا وعشان كده أنا مركز إننا نروح كام مرة كمان ونخلص ومنروحش تاني. نكسب الكانسر ونطلعه برا ".

بهذه البساطة، وبكل سهولة وفي وسط تعبنا وإرهاقنا الجسدي والنفسي، ذكرتنا كلمات وروح أولادنا لماذا نقاتل، كنا نعتقد أننا، على قدر استطاعتنا، نساعدهم، لكن اتضح أنهما يساعداننا بالتعبير عن مشاعرهما وتذكيرنا بأن السرطان سيظل على خطأ ويظل الله سبحانه وتعالى على حق. لقد وقفا وتعاملا مع الموقف على أكمل وأجمل وجه .

كانت الجلسة العائلية قصيرة جدا، وكانت مشاعرنا هشة للغاية لكنها واضحة. كنا متعبين وبحاجة لبعضنا بعضا، فجلسنا على الأريكة، كل منا مع وسادته نتفرج على التليفزيون ونأكل سويا. حاولنا فهم وهضم الكثير من الكلمات والمشاعر معا. كنا في حاجة إلى بعض لنستمد طاقتنا من حبنا لبعض .

لم نكن نعلم أن زيارات العيادة والزيارات المنتظمة للمستشفى تتطلب الكثير من الصبر، عندما نذهب لزيارة طبيب زين إذا كان من المقرر أن تكون لمدة ساعة واحدة، كان علينا أن نلغي جدولنا ليوم كامل. من اللحظة التي نستيقظ فيها، ونستعد للطريق الطويل للمستشفى.. ثم عندما نصل إلى المستشفى، ننتظر في المختبر حيث يتم أخذ عينة دم من زين وإرسالها إلى المختبر للتحقق من النسب، ثم نذهب إلى العيادة لنسجل أسماءنا ويبدأ الانتظار مرة أخرى ..

ساعات وساعات من حياتنا نقضيها حرفيًا في غرفة الانتظار التي تشهد قصصًا متغيّرة في الحياة في كل مرة !

مر ما يقرب من عام من حياتي وأنا جالسة على كرسي في غرفة

الانتظار سواء كنت في انتظار طبيب للتحدث إلينا بعد العلاج أو بعد الجراحة، وأتقنت أدوات النجاة في غرفة الانتظار! ألا وهي الشاحن الإضافي لهاتفي، كتاب دائم التغير لم أتمكن قط من قراءته حتى النهاية، ولكن مجرد وجود كتاب في حقيبتي أعطاني إحساسًا بالراحة، الوجبات الخفيفة وقلم ولاب توب. لذلك، عندما كنا نستعد للذهاب إلى ما يُتوقع أن تكون زيارة عيادة طويلة، كان علي أن أحضر السلاح السري للأطفال! الآي باد ! "في داهية دروس التربية بقا في يوم زي ده، عادي يتلهوا في الآي باد ويبقوا جنبي بس مش مركزين عشان نعرف إحنا نركز ونفهم ".

دخلت الطبيبة بابتسامة وجهها نصف مبتسم، مما كان مؤشرا على أنها كانت نصف سعيدة. نظرت إليّ أنا وتامر أولًا، ثم سلمت على الأطفال وسحبت كرسيًا لتجلس بالقرب منا .

دكتورة M : "طبعا أنا عارفة إنتو مش مبسوطين إن بعد كل العلاج العنيف ده لسه فيه خلايا سرطان، بس أنا متفائلة بالعلاج الجديد ده. هو لسة مش متجرب كتير بس أنا حاسة إن ده اللي حيقضي على الخلايا اللي في النخاع عنده ".

"آه ياااني! إيه السرطان ده؟ مهما عملنا مش بيروح! كيمو وادياله، زرع نخاع وادياله... مش عايز يسيب جسم زين ليه؟ ". استمر الحوار على توقعات الأعراض الجانبية، فقد كانت التجربة جديدة وغير مجربة على الكثير من المرضى ولم يكن لدينا الكثير من التوقعات عما يمكن أن يحدث من تفاعل في جسده .

تامر : "أيوة وانا بقا أثق في دوا جربوه على الفيران بس ليه؟

ولا أعرف حيعمل إيه في جسمه. أثق في الدوا ده ليه يعني؟ ".

دكتورة M: "عشان معندناش حل تاني! إحنا جربنا كل حاجة ومفيش حاجة بتشتغل ".

جلست في ركن الغرفة أستمع باهتمام، ولاحظت أن كلا من زين وملك كانا ملتصقين بالآي باد، في حين لم يبدِ زين اهتمامًا بكونه جزءًا من المحادثة، كانت ملك تنظر إلينا من حين إلى آخر في محاولة لفهم كل شيء نقوله. شعرت بأمان أنها كانت معنا في الغرفة، بالقرب منا، وهي جزء من هذا ولكن كان كل هذا من الصعب فهمه .

وكما هو متوقع، دخلنا المستشفى الساعة 11 صباحًا ولم نغادر حتى الساعة 5 مساءً. لذا، فعلنا أفضل ما نعرفه في لوس أنجلوس بعد يوم طويل ممرض في المستشفى.. أكلنا الشاورما !

توجهنا إلى مكاننا المفضل، وطلبنا ساندويتشات الشاورما وأوقفنا السيارة، وتناولنا الطعام مع الدردشة .

أنا : "زين، أنا عارفة إحنا بقالنا شوية في البيت من ساعة الـ BMT بس إنت عارف إحنا لازم نرجع المستشفى عشان نخلص بقا على العساكر اللي فاضلين من الجيش الوحش، صح؟ ".

زين : "أيييووونن ".

أنا : "إنت سمعت دكتور M قالت إيه النهاردة؟ ".

ملك "مقاطعة ": "أيوة أنا سمعت، حيقعد أسبوع في المستشفى وحيجيله حرارة عالية ونروح كل ما يتعب. حتباتوا هناك صح؟ ".

يا الله على هذه الفتاة! فقد كانت مستمعة، وتحاول على قدر المستطاع أن تفهم كل شيء .

أنا : "أيوة يا لوكي، بس الحرارة المرة دي حتبقى من الدوا اللي بياخده وهو هناك، مش زي الكيمو كان بيتعب بعديه. يعني مختلف شوية لو جاله حرارة حتبقى وهو هناك ".

زين : "هو فاضل كام عسكري في الجيش الوحش؟ أنا مش عايز أرجع المستشفى ".

ظننت في هذه اللحظة أن أصعب شيء هو أن أشرح لأولادي طريقة العلاج الجديد المحضر في مختبر على فئران تجارب الذي متوقع أن يحدث تفاعلات كيميائية في جسده آملين أن تقضي على الخلايا السرطانية. ولكن ما لم أكن أتوقعه في ظل رائحة الشاورما في السيارة هو أني يجب أن أساعد زين مرة أخرى أن يتحمس للذهاب إلى المستشفى بعد أن تعوَّد على المنزل والراحة. فقد كان يبدو سليما وصحته في تحسن بالرغم من معرفتنا أن الخلايا السرطانية ما زالت تستوطن جسده. ولكن كان لا بد أن يلبس رداء البطل الخارق مرة أخرى ويستعد لمعركة جديدة. وفي ظل ما كنت أرتب أفكاري لأجد

الكلام المناسب، جاء بطلي الخارق ليرد بحكمة، فقد كان تامر لديه القدرة على رؤية اتجاه المناقشة وكان من مشجعي مبدأ حل المشكلة قبل أن تصبح مشكلة أكبر. فقد رأى أنه توجد فرصة أكبر لمشكلة أكبر في المستقبل وهي الخوف من غير المعلوم .

نظر إليه تامر وقال : "أنا عارف يا زين، كلنا اتعودنا نبقي في البيت مع بعض ونريح، بس إنت إيه رأيك؟ نقعد في البيت ونعيا أكتر

ولا نروح المستشفى شوية ونخف ونخلص؟ إحنا أخدنا بريك حلو ويلا بقا نخلص على الشوية الفاضلين. بس إحنا عايزين نعتمد عليك، ونعرف إننا ممكن نخلص على ده مع بعض. إيه رأيك؟ ممكن نعتمد عليك يا زين؟ ".

وتغيرت اللحظة التي ظننت أنها ستصبح عبئا ثقيلا، تحولت من لحظة انهزامية وإحساس بالملل والضعف للحظة سعيدة يتخللها صوت ملك الصغير يصرخ بحماس "ذا يوسفز نفر كويت !!!" أو عائلة يوسف لا تستسلم أبدا!!!! ضحكنا من كل قلبنا وتغير الجو العام، ووافق زين على تحمل المستشفى مرة أخرى والاستعداد للمعركة. كانت رحلة السيارة المليئة برائحة الشاورما خطوة جديدة لعالم جديد لم نعرفه من قبل .

دربت نفسي على ألا أخاف من التجارب العلمية الجديدة، بل العكس، أن أحاول أن أجد فيها الأمل في علاج جديد وحل نهائي للقضاء على السرطان. دربت عقلي على أن يرى الإيجابيات فقط وأن يختار السعادة والرضا في أي ظرف سلبي وعنيف. فلو قدر له أن يكون واحدا من أطفال قليلين يتم تجربة هذا العلاج الجديد عليهم، فسيكون بإذن الله ناجحا وشافيا. لم يكن لدينا حل آخر، فاخترت أن أرى نعمة الحل الوحيد بدلا من عدم وجود نعم على الإطلاق .

اقترب عام 2013 من نهايته. بعدما بدا أنه أطول عام في التاريخ، ولكنه لا يغادرنا بنفس الطريقة التي استقبلنا بها، فنحن مختلفون تمامًا! فقد تغير منظورنا عن الحياة. وكانت تجربتنا حقيقية وواقعية وقريبة من المرض والموت مما جعل منظورنا للأمور أعمق. فلا يوجد شيء بإمكانه أن يغير شخصا بالغا أكثر من رؤية ابنه الطفل الصغير يعاني وليس بيده أي شيء يوقف هذه المعاناة. فكلما اقترب الوقت من بدء التجربة العلاجية غير واضحة النتائج، ارتفعت نسبة الأمل عندي في الشفاء على المدى الطويل، واعتبرتها مجرد خطوة أخرى من المرض

والتعب أملًا في الشفاء التام.. إذن فليكن! سأتحلى بالشجاعة، سأقبل التجربة، وسأحصل إن شاء الله على النتائج الجيدة .

طبعنا نتيجة جديدة بالتواريخ المتوقعة للمعركة الجديدة واستعددنا لنوع جديد من العلاج، نوع ستظهر آثاره الجانبية مع بداية الجرعات وليس بعدها عكس الكيماوي تماما. كان الهدف أن نقوي جهاز المناعة بشكل كيميائي كي يقاتل السرطان بنفسه. أصبح كيس السم الملون الذي يضخ في عروق ابني ما هو إلا.. أمل! وجاء اليوم لاجتماع عائلي جديد بينما نأكل العشاء ونستعد لأول يوم علاج في اليوم التالي .

تامر : "إنتو عارفين إيه اللي حيحصل بكرة؟ ".

ملك : "أيوة، زين رايح المستشفى تاني وأنا مش مبسوطة ".

تامر : "أنا عارف، بس إنتي حتزوريه وحتكلميه كل يوم على الفيديو كمان، شوية وتلاقيه روّح ".

زين : "ملك أنا حروح بسرعة وأرجع بعديها بكام يوم، والمرة دي مش حبقى تعبان قوي لما أروح زي كل مرة فممكن نلعب مع بعض ".

ظللت أنقل نظري بينهم وهم يتحدثون. لم أقل شيئًا. فقط ظللت أنظر إليهم، وخصوصا طريقة تامر في إدارة الحوار. تابعت هدوءهم وهم يتحدثون عن شيء يكرهونه، وهو العودة للمستشفى، وتقسيم الجدول اليومي بين البيت والمستشفى، لكنهم في الوقت نفسه خائفون من الوحش الصامت داخل جسد زين. فكلما انتظرنا بدون علاج كبر واكتشف طريقة للنمو. كانت المقاومة والهجوم بكل طريقة ممكنة أسلوبنا الأول والأخير، فحرب السرطان ربما تتخللها فترات راحة ولكنها لا تنتهي .

انطلقنا في الصباح، بعد أن وصلّنا ملك المدرسة، وبينما كنا نحضّر أشياءنا الكثيرة: المخدات والكتب والألوان وكل شيء يساعدنا على جعل وقت المستشفى نوعا ما مقبولا وكأننا في منزلنا الآخر.. أيقنت أني خائفة! وبالرغم من كل محاولاتي لأستمر في الإيجابية والتفاؤل لكن الخوف وجد طريقه إلى نفسي، وبينما زين مستقر في سريره والممرضات يتابعن بداية العلاج زاد إحساس الخوف في قلبي، ووجدت نفسي أتجه أوتوماتيكيا إلى موقعي على الكنبة المواجهة لسريره، جلست في الركن أنظر خلسة من وراء الزجاج إلى الشارع

والحياة مستمرة بالخارج بشكل طبيعي.. سمعت الممرضة تقول : "ابتدينا.. الدوا بدأ وهو حينام دلوقتي ".. أغمضت عيني ودعوت! تحدثت إلى الله ورجوته أن يهون على زين آثار العلاج، أن يصبره وأن يقضي على السرطان نهائيا إلى الأبد. ظللت أدعو وأحلم ونسيت أني ما زلت في غرفة المستشفى وتخيلت المكالمة التي طالما حلمنا بها.. عندما نتصل بكل أهلنا وأصدقائنا ونبلغهم أن زين تعافى. سمعت أصواتهم في أذني يصرخون ويهللون من الفرحة، رأيت دموعي أنا وتامر في لحظة انتصار، تخيلت زين يجري ويلعب مع ملك وهو سعيد وسليم ومتعافٍ. رسمت المشهد في خيالي واحتفظت به في ذاكرتي وأصبح هو الهدف الجديد الذي نسعى إليه . "زقة كمان

يا رضوى... فات الكتير ومفاضلش إلا القليل ".

انتهينا من أول كورس علاج واكتشفنا أنه مختلف عن الكيماوي فقد كان سما من نوع مختلف، كان يهلك الجسد ولكن بدون آثار واضحة مرئية، استمتعنا بكل لحظة مع بعض.. ضحكنا ولعبنا وتكلمنا عن السرطان كجزء من حياتنا واستعددنا للكورس الثاني، بينما مرت الأيام السعيدة سريعا وعدنا إلى المستشفى مرة أخرى. كان الكورس الثاني أعنف بشدة وسبب لزين آلاما رهيبة وحرارة مرتفعة. كنت أتحرك في الغرفة كالمجنونة، أذهب لزين وأهمس في أذنه وأسأله لو كان مدركا من أنا أو أين نحن، وبينما هو في وضع الجنين كانت إجابته وصوته يقلقني أكثر! لم يكن يدرك أين نحن ولا من أنا، كانت الحرارة المرتفعة سببت هلاوس وأصبح العلاج مثله كمثل السم القاتل يجري في عروقه. وبينما أكتب هذه الكلمات وأتذكر هذه المرحلة من العلاج، تظل ذكرى معينة في خيالي وهي قدرته على القتال بالرغم من عدم وعيه وإعيائه الشديد، فبينما هو غير مدرك مكانه أو الناس حوله كان وكأنه يرسل لي علامات ورسائل من عالم الآثار الجانبية. في لحظة ما ووسط دهشتنا جميعا أنا والممرضات رفع زين قبضته في الهواء.. تخيلت في لحظتها أن ذراعه يؤلمه فقد كان يرقد على ظهره محاطا بأكياس الثلج في محاولات بائسة لانخفاض الحرارة. حاولت بهدوء إنزال يده ولكنه قاوم وظلت قبضته محكمة في الهواء فاقتربت منه أهمس : "زين.. إنت كويس؟ ".

زين – بصوت خافت ومتعب للغاية : "حضربه في وشه ".

أنا : "تضرب مين يا حبيبي؟ ".. ظل ساكتا فسألته مرة أخرى : "تضرب

مين يا حبيبي؟ ".

زين : "الكانسر.. حضرب الكانسر !".

شعرت بمزيج من العواطف التي كسرتني. وضعت رأسي إلى الأسفل إلى جانبه بكيت، أمسكت بقبضته الثابتة في الهواء وبكيت بقوة. شعرت بالهزيمة والغضب والتعب ووجع القلب في نفس الوقت. كل هذه المشاعر ملفوفة بقوة وأنا ببساطة .. مكسورة .

شعرت بذراعين ملفوفين حولي في نفس اللحظة، كان الممرض معي في الغرفة. فقد انهار أيضا، لم يجد كلاما ولم يكن يعرف ما يجب القيام به، لم يكن متأكدا مما إذا كان من المناسب أن يعانقني ولكن الموقف كان أكبر منا، فذهب حول السرير وشعرت به يعانقني لمدة ثانية، ثم ذهب ليجلس بالقرب من زين.. كانت الإنسانية في هذه اللحظة تقول لي أنت لست وحدك .

السرعة التي تعمل بها هذه المشاعر المتقلبة هي شيء لا يصدقه عقل، تلك الحادثة كانت كافية لإطلاق العنان للوحش في داخلي. استيقظت وخرجت من الغرفة، وسرت في أروقة المستشفى بقلق أثناء تصفح الإنترنت على هاتفي. كنت أبحث عن كل علاج طبيعي أو طريقة ممكنة لكسر الحمى والحرارة فقد طفح الكيل وكنت مصممة على استعادة زين من عالم الهلاوس. في لحظة وجدت وصفة! وصفة يائسة طبيعية قديمة. ركضت إلى المتجر المجاور للمستشفى واشتريت بصلا أبيض كبيرا وزجاجة خل .

عدت إلى الغرفة وبدأت في تطبيق الوصفة، قطعت شرائح البصل وربطتها في بطن قدمه بينما غمست جوربه في الخل وعصرتها قبل أن ألبسها له. انتظرت بشغف وأنا أنظر إليه ورائحة الغرفة أصبحت مثل رائحة مطبخ جدتي.. وبعد حوالي نصف الساعة فتح عينيه وانخفضت حرارته قليلا، تحولت شرائح البصل الأبيض إلى اللون البني القاتم ولمعت عيني وأنا أشعر بلذة الانتصار فقد اخترت أن أصدق أن وصفتي السحرية نجحت.. ظللت أكررها كل نصف ساعة حتى فاق زين وكلما تكلم بصوت واضح وكلمات مفهومة شعرت أني أستطيع أن أقهر العالم. كانت لحظة كبيرة عندما تحولت الأم المكلومة بداخلي إلى أخرى قوية وكلها إصرار .

هناك طريقة أخرى لتذكر تلك الليلة وهي رواية الممرضات لما حدث

ليلتها، فقد كانت الليلة التي فقدت فيها هذه الأم المجنونة عقلها وجعلت قسم أورام الأطفال تشبه رائحته رائحة الفاهيتا. في كلتا الحالتين في قصتي أو قصة الممرضات فقد ربحنا جولة أخرى من المعركة. ليس بالضرورة عن طريق التغلب على السرطان، ولكننا استطعنا البقاء على قيد الحياة وما زالنا واقفين على أقدامنا !

حساسية السنة السابعة

"تتحول الأمور إلى الأفضل للذين

يحققون أقصى ما يستطيعون ".

جون وودن

ديسمبر 2013:

يقولون إن السنة السابعة من الزواج تمثل علامة فارقة كبيرة!
يسمونها حكة أو حساسية السنة السابعة .

فالسنوات السبع وقت كبير استغرقه الزوجان في النمو والتطور والتكيف مع بعضهما بعضا، وهو وقت كافٍ لبناء أساس لحياتهما معا. وبعد حوالي 7 سنوات تبدأ الحكة أو الحساسية إما لأنها هي دورة التغيير العادية، وإما لإنها إطار زمني كاف لتطور ونضج الشخصيات، أو لأن الحياة أصبحت مرهقة أو مملة للغاية، ولهذا تصبح السنوات السبع بمثابة خطوة كبيرة. في حالتنا أنا وتامر، لم تكن فقط حكة أو حساسية.. بل حمى أو حصبة.. فتطور الأحداث عندها فاق كل تخيلاتنا .

يومها.. مددت جسدي على السرير أو الأريكة في غرفة المستشفى، على الرغم من أنها واحدة من أكثر الأشياء غير المريحة التي اضطررت للجلوس عليها، ناهيك عن النوم، ولكنها كانت بجانب زين وسمحت لي بتمديد جسدي من حين لآخر بينما كان نائما قليلا. وكنت أتصفح رسائلي وصفحتي على الفيس بوك، عندما ظهرت ذكرى زوجين سعيدين جدا، كانت العروس في ثوب أبيض كبير وابتسامة كبيرة تكفي العالم أجمع، وكان العريس يبدو وسيما في بدلته الشيك. نعم.. كانت صورتنا! كنا نحن بابتسامتنا الكبيرة مقبلين على الحياة ومتحمسين.. كانت الصورة ذكرى عيد زواجنا السابع في نفس اليوم! وبدلا من احتفالنا بعشاء فاخر أو رحلة قصيرة، سنجلس بدلًا من ذلك على مقاعد المستشفى، ونتفرج على الأنابيب والأدوية. اتصلت بتامر وطلبت منه أن يجلب بعض الطعام في طريقه إلى المستشفى فقد كان دوره في الجلوس مع زين بالمستشفى وأذهب أنا لملك بالبيت، تمنيت لو أنه يأتي مبكرًا فهذا معناه أننا سنقضي قليلا من الوقت

سويا .

وبعد مرور ساعتين، سمعت صوت باب الغرفة الأبيض معلنا حضور تامر ومعه أكياس الطعام التي كانت رائحتها كافية لتنسيني رائحة غرفة المستشفى المليئة بالمنظفات والأدوية في كل مكان. خرج زين ليمشي قليلًا مع أصدقائه من الممرضات، أحيانا كانت هذه طريقته ليعبر عن الملل بدون كلام. كان خوفنا من الاعتراف بأننا مللنا من كل هذا أقوى من الشعور بالملل نفسه، كنا جميعًا في حالة ترقب دائم أن اللحظة التي نسمح فيها بسلوك ضعيف للسيطرة علينا، من الممكن جدا أن يسحبنا إلى الأسفل بسهولة، لذا حاربنا بالطريقة الوحيدة التي نعرفها.. الضحك! أمسك تامر بالصينية الطبية ووضع الأكل عليها وهو يضحك قائلًا : "كل سنة وإنتي طيبة، أظن خروجة رومانسية مكنتيش تحلمي بيها ".

ضحكت على فكرة تناول عشائنا السنوي مع منظر رومانسي للأنابيب وأجهزة المستشفى والسرائر البيضاء وقلت : "مكنتش أحلم بيها فعلا ". كنا نأكل ونضحك ونحلم بذكرى زواجنا القادم. تخيلنا انتهاء هذا الكابوس قريبا وحلمنا برحلة تنسينا كل هذه الذكريات المؤلمة. كنا دائما نتخيل الهدف النهائي، خط النهاية بدا بعيدا الآن ولكن يمكن تحقيقه بطيئا لكنه أكيد. نظر حوله وأمسك بكأس معقّمة وصب فيها المياه، راقبته بهدوء بينما أفكر في رعاية الله لنا وسط كل هذا وبركاته وسط كل الظلام. من المؤكد أنه اختارنا لسبب ما أكبر منا لهذا الاختبار، ولكنه أعدنا له ووضعنا فيه سويا .

الزواج ليس مجرد شراكة في الخير والشر أو في الصحة والمرض، وهو ليس فقط شخصين قررا الاستمتاع بحياتهما معا، ويهتمان ببعضهما بعضا.. ولكن الأمر أكبر وأعمق من ذلك! إنها رابطة أكبر منا، إنها القدرة على الوقوع في حب بعضنا بعضًا مرارًا وتكرارًا، الرغبة في النمو، والتطوير والحفاظ على العلاقة، وجعلها ليست فقط قوية تكفي للتعامل مع الحياة، ولكن بدلًا من ذلك.. تكون هذه العلاقة هي الأساس الفعلي للحياة. كنت أنا وتامر دائما نضع أهدافا لعلاقتنا كزوجين وكأهل لأولادنا، ولكن جاء السرطان وهز كل شيء وتركنا في حيرة كبيرة! كنا نعرف ذلك، وشعرنا به ولهذا ومنذ اليوم الأول صمدنا لنقاومه. وفي النهاية، لم يكن لدينا أي خيار فيما قررت الحياة اختبارنا به، ولكن كان لدينا خيار حول كيفية النظر إليها. بإمكاننا التركيز على ما يفرقنا أو بدلًا من ذلك نعمل سويا على ما يبقينا معًا .

الذكرى الأولى

"لن يفوتك ما قُسم لك ".

الإمام علي بن أبي طالب

استيقظت وأخذت دشا دافئا لطيفا ثم ارتديت زيا جميلا. ووقفت أمام مرآتي أتجهز، وتوقفت لأتأمل وأبتسم! اليوم هو يوم عظيم !

7 فبراير 2014 ، سنة كاملة مرت منذ دخل السرطان حياتنا ! 365 يوما ! رحلة كاملة مليئة باللحظات الصعبة، والذكريات العزيزة الرائعة، والدروس القيمة المذهلة وشعور مذهل بالإنجاز. لم تكن كغيرها من السنين .

عام كامل مر على يوم أتذكره بقوة بكل تفاصيله وألوانه، أتذكر الوجوه وردود الأفعال. ففي مثل هذا اليوم منذ عام على التحديد 7 فبراير 2013 تغيرت الحياة كما نعرفها إلى الأبد! تغيرت 180 درجة. أصبح المستشفى بيتنا الثاني، أصبح الحديث عن العلاج الكيميائي، والإشعاع، والعمليات الجراحية، والعلاج المناعي هو الحديث اليومي.. لكن كان أجمل ما فيه رؤية ابننا يقاتل مع ابتسامة بطل تملأ وجهه وروح إيجابية تبث لكل من حوله .

اليوم لست خائفة أو حزينة.. بالعكس! أنا أشعر بالفخر الشديد! أنا فخورة بزين لأنه أثبت لي ولمن حولنا أننا ربينا رجلا، لا يمكن أن نطلق عليه أقل من ذلك.. فخورة أيضا بابنتي ملك كانت جنديا قويا وداعما نفسيا لنا في هذا العام، تعلمت سريعا كيف تعبر عن مشاعرها الجميلة، أعطتنا دائمًا الضحكة حين نحتاجها، للصلاة والدعاء معنا كل ليلة، كبرت في غفلة منا لتكون الآنسة الصغيرة الرائعة التي هي اليوم. أنا فخورة بزوجي وشريك حياتي وصديقي الذي يضع عائلته في المقام الأول، الزوج والأب المثالي يجعلني فخورة بأن أكون معه لأشاركه هذه الرحلة .

أنا فخورة بنفسي لقدرتي على الابتسام كل صباح، والقدرة على التحمل بينما أنا في قمة التعب، وأخيرا فخورة بنا كوحدة واحدة وبتطورنا وعلى تحملنا هذا العام. لم أكن أتخيل أن بعد عام من التشخيص والمرض سأكون هنا! أستعد للاحتفال بابني وهو يعمل جاهدا على كسب الحزام الأحمر في التايكوندو .

سيحصل زين على الحزام الأحمر له في التايكوندو وينسى كل العقبات والعوائق التي مر بها، الليلة نقف معًا كوحدة واحدة، فقد نجحت عائلتنا الصغيرة في الصمود سويا أمام المرض اللعين واليوم.. نحتفل، بدلا من البقاء في المنزل وأنا حزينة على قضاء عام كامل من السرطان! بالعكس! نحن في طريقنا للوقوف بصوت عالٍ وفخور، ونشاهد ابننا يقاتل من خلال ضعفه الجسدي، ويجتاز اختبارًا فخريًا لمدة 30 دقيقة، ويمارس فيه كل ما تعلمه من ركلاته الصغيرة، واللكمات، والعصي، وروتين السيف، وسوف تنتهي الليلة بأن يصبح مرشحا للحصول على الحزام الأسود ويقهر السرطان نفسيا .

احتفال اليوم هو احتفال بسنة كاملة من القوة، 12 شهرًا من المشقة والتحديات وعدم الاستسلام والنِّعَم! أنا فخورة بما أصبحنا عليه، فخورة بوقفتنا يدًا واحدة في معركة التزم كل منا بدوره بمهارة.. فبعد عام كامل لا يسعني إلا أن أنظر حولي للحركة والثورة التي وجدت طريقها في قلوب الكثير من الناس بسبب زين ورحلته. وشعرت بالفخر أكثر، وأنا أفكر في أصدقائي وعائلتي الذين بالرغم مما يمرون به في حياتهم الشخصية وقفوا بجانبنا وتفهموا، أنظر إلى الأصدقاء الجدد الذين صنعناهم ونعتز بصداقتهم إلى الأبد .

أفكر أن كل هذا يعود إلى الحب والقوة والوحدة والمثابرة، إلى كيفية التعامل مع الحياة بقوة بغض النظر عما نحن بصدده .

صحيح أننا لم نتخلص من السرطان بعد، لكن هدفنا واضح، وشعارنا مكتمل.. سنسعى دائما للاستمتاع باللحظات السعيدة على الرغم من المعركة الشاقة، قد لا يزال زين ضعيفًا ويتعب بسهولة، ولكننا نجحنا في تشجيعه طوال هذا العام كله ليصمد لمدة 30 دقيقة من الاختبار الجسدي، في نفس اليوم الذي يمثل الذكرى السنوية لتشخيصنا بالمرض! لا يزال أمامنا طريق طويل مع المزيد من العلاجات والإقامة في المستشفى، لكننا سنواصل القتال بالإيمان والابتسامة إن شاء الله .

ولهذا أرفض أن أعلن 7 فبراير ذكرى حزينة بعد الآن! أرفض السماح لتاريخ معين أن يحدد لي طريقة تفكير أو أسلوب حياة! أرفض السماح لرقم في التقويم بتوجيه عواطفي. سيكون اليوم ذكرى وقوفنا فيه على المنصة مع أصدقائنا وعائلتنا وكسبنا معركتنا ضد السرطان! سيكون اليوم ذكرى شعورنا بالفوز على الرغم من أن حربنا لم تنته!

سيكون اليوم بداية جديدة، لأحداث سعيدة تدوم إلى الأبد، فنحن محاطون بالبركات والنعم حتى في الأوقات الصعبة .

ركبنا سيارتنا وزين يرتدي زيه الرسمي للتايكوندو في طريقنا إلى الاحتفال استمعنا لموسيقانا المفضلة، وغنينا من قلوبنا في الطريق. وصلنا إلى القاعة الكبرى واستقبلنا كل من جاء ليحتفل بزين من عائلتنا وأصدقائنا وممرضاتنا وأصدقائنا الجدد من مكافحي السرطان .

وجاءت اللحظة التي قام فيها زين بأداء ما تدرب عليه، وبالرغم من عدم قدرته على الانحناء أو الركل بكل قوة، لكنه دفع نفسه إلى الابتسام وأظهر وجهه المصمم على كل شيء. وقفنا جميعا نشاهد زين يكسب حزامه الأحمر ويستعد للأسود وشعرنا بإنجاز رهيب. وبين التفاصيل المتكاثرة من حولي من الدموع السعيدة المتساقطة والابتسامات الكبيرة والتصفيق الحاد، وفلاشات الكاميرات التي ترصد ردود الأفعال السعيدة والمتأثرة... بين كل هذا .. رأيت ابني .

رأيت ابتسامته المشرقة وهو فخور بنفسه والجميع من حوله. فها هو فريقه الذي تدرب معه أسبوعيا، يقف بجانبه ويهتف له، وها هي عائلته من جانبه تدعمه وتحفزه، رأيت الجميع كحزام كبير للتايكوندو، بينما يمثل زين العقدة التي تربطهم سويا. أيها السرطان، نعم لقد سرقت سلامنا، وعقلنا، وصحتنا وحياتنا الطبيعية، لكنك لن تسرق أبدًا إيماننا وابتساماتنا. نظرت إلى زين برأسه الأصلع، وجسده النحيل الضعيف، وابتسامته الكبيرة، وعلمت أننا كسبنا هذه اللحظة.. ملكناها، ومهما حدث.. لن يسرقها أحد منا أبدا .

أبريل 2014:

جاء شهر عيد ميلادي وأنا أتمنى هدية واحدة فقط، وهي نتيجة الفحوصات بعد مرحلة أخرى من العلاج، آملين أن نكون قد قضينا على آخر خلايا عنيدة. وبينما كنا نتجه نحو مكان وقوف السيارات في المستشفى، أعلن الربيع عن نفسه في النسيم الخفيف على وجهي مصحوبا بأشعة شمس جميلة ودافئة، تمنيت أن تطول هذه اللحظة لفترة أطول قليلًا! ولكن كان عليّ أن أسير في مبنى المستشفى وأدخل في كوكب سخيف يتوقف الوقت بداخله. فبداخل هذه الجدران، تتشابه الأضواء، ونفقد الوقت ولا نشعر بفرق ما بين النهار أو الليل. خرجت من السيارة، ورأيت زين يخرج ببطء فقد زاده العلاج ضعفًا

وأصبحت قدرته على التحمل أقل بكثير الآن. خرج من السيارة ولف ذراعيه حولي ورفع رأسه ونظر لي وابتسم. لطالما أحببت كيف أنظر إلى أطفالي، لقد أعطاني شعورًا بالراحة، يجب أن تمنحهم هذه النظرة الإحساس بالحماية. لقد أدركت تمامًا هذه الحقيقة عندما أصبحت أما، فلا تدعهم يشعرون أبدًا بأنك أكبر فيخافون، وبدلًا من ذلك دعهم يشعرون أنك منطقة أمانهم .

بينما هو يلف ذراعيه حولي سألني : "ماما عايزة إيه في عيد ميلادك؟ ".

أردت أن أضمه بشدة ولكني كنت مدركة أن حضني له قد يؤلمه فضممته أكثر برفق وقلت : "ولا حاجك يا حبيبي مش عايزة حاجة ".

زين : "ده عيد ميلادك.. لازم تعوزي حاجة ".

أنا : "إممم، عايزاك حلو وجميل ومكسر الكانسر ".

زين : "كنت متأكد إنك حتقولي كدة.. أنا بحاول يا ماما بجد أنا وعدتك ".

أنا : "عارفة يا حبيبي وعشان كدة مش عايزة حاجة.. هديتي إنت إديتهالي خلاص ".

كنت أشعر بالخوف من الضغط على زين، أخشى أن يشعر بأنه مسئول وحده عن مهاجمة السرطان أو الفوز عليه. كنت أشعر بالقلق من شعوره بالخوف من أن يخيب آمالنا. فكانت غريزتي تغلب عليَّ حين أشعر بهذه اللحظات، وتستجيب على الفور لجعله يشعر بالتقدير والاحترام، وتشدد على حقيقة أنه يقوم بهذا الإنجاز ويستكمل ما

لا يمكن تصوره عقل لكي يعلم أننا فخورون به ولكننا لا نحمله فوق طاقته .

جلست في غرفة الانتظار منتظرة الدكتورة R التي تحل محل الدكتورة M حتى تعود من إجازتها. تذكرت كيف كان الانتظار في الأول محيرا وغريبا، لكن بعد أكثر من عام كامل الآن في استطاعتنا فهم المرض والإجابة عن أسئلة طبية عميقة. أخذت نفسا عميقا أحاول أن أهدئ نفسي في انتظار الخبر الذي طالما انتظرناه. فمهما استمررنا في العلاج.. ظلت هذه الخلايا الصغيرة تنير في الفحوصات معلنة عن

السرطان وثباته في جسد زين. خرج زين وملك إلى غرفة اللعب بينما مسك تامر يدي في صمت ونحن في انتظار الدكتورة كعلامة لقوله : "أنا هنا.. متخافيش ".

شعرت بها قادمة وبالرغم من أصوات الناس خلف أبواب غرفة الانتظار وزحمة المرضى والأهالي فقد ميزت صوت كعب حذائها وسمعت خطواتها تقترب. شعرت بالنفس في رئتي يثقل، وأصبح التنفس أصعب كلما اقترب الصوت، شعرت بالعرق البارد على جبهتي حتى توقفت كل الأصوات ما عدا صوت الباب وهو يفتح ويعلن عن وصولها. كانت عيوننا وعقولنا ومشاعرنا تصرخ في صمت ونحن ننظر إليها : "ها!!! عملنا إيه؟ بقالنا سنة ونص ومفاضلش غير مرة كمان علاج ونكون خلصنا.. راحوا النقطتين النيلة دول ولا خلاص كدة مفيش أمل؟ كسبنا ولا بعد كل ده السرطان هو اللي كسب؟ ".

نظرت إلينا وابتسمت وقالت بكل برود : " طيب كل حاجة رجعت نضيفة.. زين يعتبر دلوقتي متعافي.. حنعمل شوية ....". وأكملت كلامها وكأنها لم تقل لنا توها أكبر خبر انتظرناه بحرقة منذ عام ونصف .

قاطعتها وأنا صوتي مهزوز : "ثانية واحدة بس.. يعني إيه الكلام ده؟ ".

شعرت بيد تامر تمسكني بشدة ورأيته بوضوح بالرغم من كوننا بجانب بعض .

أعادت : "الفحوصات كلها نضيفة ومش شايفين أي سرطان خلاص.. مش معنى كده إنه خلص علاج بس معناه إننا مكملين ومفيش سرطان ".

وبينما هي مازالت تتحدث وتشرح خطورة النوع الذي حمله زين وأهمية تكملة العلاج، بالرغم من عدم وجود علامة صريحة للسرطان والقضاء على الخلايا السرطانية، التي طالما حاربناها لمدة عام ونصف. رأيت تامر يبكي في صمت، كانت المرات التي رأيت فيها تامر يبكي قليلة للغاية، وكانت كلها تدور في العادة حول أطفالنا. ولكن الشعور مختلف للغاية في هذه اللحظة، فقد عم إحساس بالدفء والسعادة في الغرفة الباردة. شعور مختلط من الخوف والحب والسعادة والانتصار والتعب كل في آن واحد .

سمعتها تقول : "افرحوا واحتفلوا.. متتشبتوش كده.. مبروك إنتو كسبتوا

". جاءت كلماتها واضحة لكن مشوشة بصوت دموعي وأنفاسي المتلاحقة. وأخيرا استطعت أن أتمالك نفسي وأنظر إلى تامر وأحضنه، تعانقنا بشدة وكأننا لن ننهي العناق أبدا وظللنا نهمس : "عملناها! الحمد لله ".

نادينا على زين وملك بسرعة وفضحتنا وجوهنا المتعبة وعيوننا الحمراء من الدموع.. جلسنا جميعا، وبينما أنا أحضن ملك وضع تامر يديه على كتفي زين ونظر في عينيه قائلا : "إنت عارف إن إحنا دايما نقول عليك بطل.. النهاردة يا أستاذ إنت أخدت البطولة لمستوى تاني خالص.. الدكتورة لسة قايلالنا إن كل العساكر اللي فاضلين في الجيش الوحش ماتوا! إنت قتلتهم كلهم يا زين.. كل الوحشين والأشرار اللي في جسمك اختفوا خلاص ". كانت ابتسامة تامر الكبيرة يتخللها الكثير من الدموع، ثم جاءت ابتسامة زين الكبيرة وهو ينظر في وجوهنا، وكأنه يريد أن يتحقق من جديتنا وجدية الخبر. وجاء صوت ملك بالسؤال المتوقع : "يعني خلاص مش لازم نيجي هنا تاني بقا، خلصنا كدة وممكن نروح بقا؟ ".

أنا : "لسة شوية يا حبيبتي.. لسة فيه أدوية لازم يخلصها بس على الأقل خلاص إحنا عارفين إن كل حاجة بتشتغل ونفرح ونحتفل بقا ". وفي لحظة من أجمل ما تكون وأصعب من إيجاد كلمات لوصفها انطلقت روح الأطفال بداخلهم وظلوا يقفزون كعلامة انتصار وسعادة .

طالما تخيلنا اللحظة التي نركب فيها سيارتنا بعد المستشفى ونتصل بأهالينا.. كان الحلم الذي طالما عملنا جاهدين لنصل إليه. جاءت أصوات أهالينا في المكالمة الجماعية في مصر وأمريكا كما تخيلناها مليئة بالدموع والزغاريد.. جاء الحلم الذي دعونا الله لتحقيقه.. جاءت اللحظة التي طال انتظارها.. اختلطت الدموع والمشاعر لتُعلن لحظة انتصار جميلة مَنَّ الله علينا بها في صورة صوت الدكتورة معلنةً شفاء زين .

زين خف... زين خف .

وظننا الحياة طبيعية !

"دائمًا ما يبدو الأمر مستحيلًا،

حتى يتحقق ".

نيلسون مانديلا

استيقظت أشعر بالراحة للمرة الأولى منذ وقت طويل، لم أستطع أن أفسر مشاعري، ولكنه كان شعورا عاما بالارتياح! فأخيرا أستطيع الذهاب للنوم متيقنة وسعيدة بأنه لا يوجد سرطان في منزلنا وتحت سقفنا.. زين نجح وانتصر، حتى لو ما زال أمامه طريق طويل، وكان عليه إكمال رحلة العلاج والعودة إلى المستشفى، وكان لا بد أن يترك أصدقاءه ومدرسته والذهاب لأخذ أدوية أكثر إيلاما لفترة من الوقت. لم يكن إحساسًا بالسعادة فقط، كان أكثر من ذلك.. كان ارتياحا ممزوجا بالرضا والانتصار! استدرت في السرير ونظرت إلى تامر الذي كان مستيقظًا، نظرنا إلى بعضنا بعضًا ولم أستطع التوقف عن الابتسام. قلت له : "إنت مصدق؟ هو إزاي كدة؟ اللحظة اللى طلع عنينا عشان نوصلها أخيرا جت، بس أنا مش فاهمة أي حاجة !". رد تامر قائلا : "أنا عارف! الحمد لله يا رب.. أنا حاسس بفخر رهيب! مش عارف أوصفلك بس مبسوط قوى ومش فاهم برضه ".

قمت لإعداد الفطور وأعد الأطفال للمدرسة في هذا اليوم الجميل! فقد انتشر الخبر، واحتفل الجميع معنا على مواقع التواصل الاجتماعي ولم تتوقف هواتفنا عن الرنين، شعرت بخطواتي وأنا أمشي في المنزل خطوات لطيفة وثابتة، شعرت أني أخيرا أمشي مدركة أين سأذهب، أعرف ماذا أفعل وأنا أعرف من أكون. أيام اللحظات الضائعة، والمشاعر المختلطة، والليالي المرهقة تؤتي ثمارها أخيرا، والآن نحن على بعد خطوات قليلة من الانتصار التام. كان زين مستيقظًا وجاهزًا وهي معجزة في حد ذاتها، فلم يستطع الانتظار للعودة إلى المدرسة والاحتفال مع أصدقائه لما طال انتظاره. عادت إليه ابتسامته الكبيرة على وجهه وكان يتكلم بسرعة لدرجة أنني لا أستطيع مواكبة سرعة كلماته .

زين : "ماما إنت جاية المدرسة النهاردة؟ ممكن أقول لصحابي إني خفيت؟ طب ممكن أكلم جدو في مصر تاني؟ هو كل الناس عرفوا

خلاص؟ ".

لم ينتظر إجاباتي، فكان يتحدث ويتحرك بسرعة، وهو يشعر بالسعادة الغامرة والانتصار لأول مرة منذ مدة طويلة. وكنت أنظر إليه هو وملك وتامر وهم في طريقهم إلى المدرسة وأفكر : "أخيرا بقا نروح نشوف أهلنا في مصر ونشيل الخرطوم المقرف اللي في صدره ده! أخيرا حيستحمى ويعوم زي أي طفل طبيعي.. أخيرا هشوف ضحكته الكبيرة و ابتسامته الواسعة ". رأيت ملك سعيدة سعادة لا توصف.. ورأيت ظهر تامر منتصبا وخطواته ثابتة. غمرني شعور بالفخر وأنا أشكر الله أننا صمدنا خلال هذه التجربة كعائلة واحدة سويا .

ارتديت تيشيرت "فريق زين " وذهبت للمدرسة عند انتهاء اليوم. توقفت في كل ركن من أركان المدرسة بعيون دامعة وأشخاص سعداء استعادوا إيمانهم بالمعجزات مرة أخرى من خلال زين، معظمهم رآها أكثر من مجرد قصة سرطان، بل قصة من الصبر والتقبل والأمل والنجاح. لعبت مع الأطفال واستمتعت بكل شعور من حولي، الوجوه المبتسمة، أشعة الشمس الدافئة، نسيم أبريل الجميل، الربيع الملون. كنت على دراية بمحيطاتي السعيدة ومستمتعة به. وصلت إلى السيارة لأجد رقم المستشفى يعلن مكالمة فاتتني، وبينما كان الأطفال يضعون حقائبهم في صندوق السيارة، نظرت إلى الإيميل الخاص بي لأجد رسالة من طبيبة زين تطلب مني الاتصال بها. بينما كنت أعاود الاتصال بها بدأت في تشغيل الموسيقى واستعددت للبدء في القيادة إلى البيت .

الدكتورة R: "إزيك يا رضوى ".

أنا : "تمام الحمد لله.. خير كلمتيني؟ !".

ثم كان هناك صمت بعد ذلك لبضع ثوانٍ عندما أجابت ببطء : "أيوة! أنا للأسف عملت غلطة إمبارح.. كان فاضل تحليل واحد لسة مرجعش وأنا تحمست وقلت إنه خف، بس للأسف التحليل ده بيّن إن لسه فيه خلايا سرطانية.. مش كتير! إحنا قربنا قوي بس أنا آسفة.. زين لسة مخفش ".

فتحت باب السيارة ببطء، وخرجت منها في موقف السيارات حتى لا يسمعني الأطفال . شعرت بثقل في قدمي فجأة مثل الصخور، ودقات قلبي تتسارع وقلت : "يعني إيه عملتي غلطة؟ يعني هو مخفش؟

هو مش متعافي؟ ".

الدكتورة R: "لا لسة.. أنا آسفة ".

شعرت وكأنه تم إلقاء أوزان حديد على كتفي فجأة، شيء ثقيل جدا جعلني أشعر بالتعب والإرهاق! كنت مدركة أن الأطفال في السيارة، وأنني كنت في موقف للسيارات، وأنني لا أزال أمسك هاتفي على أذني . ولكني لم أستطع التحدث! لم أستطع قول كلمة، حتى الأصوات في رأسي بدت هادئة ومخدرة. سمعت نفسي أقول شيئا واحدا : "بس ده ظلم! إنت ظالمة " ، وأغلقتُ الخط عاودني شعور فقدان أمي، شعرت بالضياع والارتباك والحزن. شعرت بالهزيمة والانكسار . "هو إزاي أتكسر بسرعة قوي كده ومن غير أي مقدمات.. إزاي يتسرق منا حاجة اشتغلنالها جامد قوي كده؟ وليه أنا الوحيدة الكبيرة اللي هنا؟ مفيش حد كبير حواليا أسأله أعمل إيه؟ ".

كنت خائفة جدًا من دخول السيارة مرة أخرى، نظرت إلى مرآة الرؤية الخلفية ورأيت فيها زين وملك يغنيان ويرقصان وشعرت بالخوف أكثر! كان الأمر كما لو أن سحابة كئيبة غطت سيارتي ولم أتمكن من رؤية أي شيء، كنت أعرف أن شيئا ما غير صحيح، بدأت أشعر بآلام في جسدي وأردت فقط العودة إلى المنزل بأمان. ركبت السيارة وقدتها في صمت ثم جررت قدمي داخل المنزل. أخبرتهما بصوت بطيء أني أسمح لهما باللعب طوال اليوم، لكنهما يجب أن يتركاني أنام لأني متعبة . ركض زين ولف ذراعيه حولي ثم نظر إلى أعلى، بينما كان يعانقني بأكبر ابتسامة وقال : "معرفتيش تنامي عشان كنتي مبسوطة قوي إني كسبت الكانسر.. صح يا ماما؟ " ، نظرت إليه وسقطت دموعي بشكل لا يمكن السيطرة عليه بسرعة كبيرة جدا وكذبت وقلت : "أيوة يا حبيبي ده بالظبط اللي حصل ". شعرت أن كل ما حولي ينهار بسرعة، وصلت إلى سريري بعد أن أقفلت الباب واتصلت بتامر قائلة : "تعالى البيت بسرعة، عندنا كارثة ". جلست في فراشي أرتجف وأبكي بهدوء، تدفقت دموعي، وأنا لا أشعر بجسدي، لا أشعر بالألم، لا أشعر بالوزن، لا أشعر بأي شيء. أنا فقط أبكي ولا أستطيع فتح عيني. لقد كان أكبر انهيار عصبي أمر به وانتظرت تامر .

لم أعرف كم مر من الوقت حتى سمعت صوت تامر في المنزل وهو يحضن ويقبل الأطفال. فقدت الإحساس بالوقت، وبينما هو يتقن فن تجسيد أن كل شيء على ما يرام كان يهرع إلى غرفتنا. كلما سمعت

خطواته تقترب بكيت أكثر. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى يفهم ما حدث بين دموعي وصوتي المهتز. عانقني بشدة وأعطاني فرصة الانهيار التام الذي احتجته ثم مرت فترة طويلة من الصمت حتى هدأ تنفسنا. كل البكاء، والغضب، والحزن والصدمة ومشاعر كثيرة لا أعلم لها اسما، كان لها أقوى أثر على جسدي سببت لي آلاما مبرحة. لم أستطع فعل أي شيء في ذلك اليوم، لا شيء على الإطلاق، فقط ظللت في السرير، أطفأت الأضواء وقررت أن أنام وأنهي هذا اليوم. بينما كان هاتفي بجانبي مازال يرن يهنئني بعبارات مثل "ألف مبروك " "أخيرا خلصتوا " "قدها و قدود ".... كنت أقرأها كلها، وأبكي كانت من أسوأ وأضعف لحظات حياتي وكان عليّ أن أتقبلها. كان عليّ أن أسمح لها بالسيطرة، لأن القوة في بعض الأحيان تتطلب السماح لنفسي بالسقوط والإحساس بالضعف لكي أستطيع أن أقف مرة أخرى بدلا من الصمود والثبات في كل الأوقات .

عندما قررت أن أتوقف عن الحركة في السرير وأستسلم لإحساس عدم النوم وجدت تامر جالسا على حافة السرير مستيقظا وأيقنت أنه لم يستطع النوم مثلي. جلسنا صامتين في انتظار أن يقطع أحدنا هذا الصمت، كنت أعلم أننا نفكر في الشيء نفسه، ولكن آلام الليلة الماضية استهلكت طاقتنا فلم نستطع الحديث .

لكن تامر كعادته أخذ زمام المبادرة وقال : "زين عنده نسبة صغيرة قوي في النخاع فاضلة.. أقل من واحد في المية. أنا قعدت طول الليل أفكر أفرح إزاي وقررت إنهم مهما قالوا أنا برضه لازم أفرح! صحيح هو مخفش خالص بس السرطان اللي كان مغرق جسمه وفي كل حتة قل جدا وبقا نص في المية! يعني هو حارب وكسب! وعلى جثتي إني أسمح لأي حد أن يسرق سعادته زي ما عملوا معانا " ، أومأت برأسي متفقة معه في صمت. وبقدر ما أردت أن أهرب من الدنيا وأظل في السرير بقدر ما ذكرت نفسي بأهمية مواجهة هذا اليوم. نظرت إلى عيني الحمراوين والمنتفختين في المرآة، وبشرتي الشاحبة والمتعبة واستلهمت قوتي من زوجي واضطررت لمواجهة العالم، فكان علينا أن نذهب إلى المستشفى لاتخاذ قرار بشأن كيفية استئناف العلاج بعد التحديثات الأخيرة، وفي الوقت نفسه مواصلة السعادة أمام أطفالنا وخاصة زين، أما بقية العالم فكانوا لا يزالون يحتفلون بنا وبانتصارنا ضد السرطان. وقفت أنظر في مرآتي وأنا ما زلت أشعر بالثقل من اليوم السابق عندما سمعت خطوات أقدام سعيدة تتجه نحو بابي .

كان زين جاهزا لبدء يوم جديد، واقفا أمامي بشعر قصير يحاول النمو مرة أخرى بعد الكيماوي، بابتسامته الكبيرة وعينيه النائمتين، وللمرة الأولى منذ شهور يسألني : "ماما، حنفطر إيه؟ ". كانت شهيته المفتوحة لأول مرة منذ شهور كافية لتذكرني باليوم الجديد، صوته جاء ليذكرني أن صدمة اليوم الماضي مرت ومر وقت الضعف وحان وقت الصمود مرة أخرى .

مر اليوم كأي يوم آخر من الخارج، تظاهرنا بأن كل شيء على ما يرام وأوصلنا الأطفال المدرسة، شكرنا جميع الآباء والمعلمين على الاحتفال بنا ومعنا، تماسكنا وأخفينا دموعنا خوفا من جذب الانتباه ونشر الأخبار الجديدة حرصا على ألا تصل لزين. ذهبنا إلى المستشفى واجتمعنا مع الطاقم الطبي .

لم أتحدث، ولكن عيني قالت كل شيء. لم أتكلم ولكن صمتي كان كافيا. جلست في ركن من الغرفة أراقب تامر والجميع وظللت صامتة.. شعرت بتجربة وكأني خارج الجسد وكأني كنت أشاهد نفسي وكل من حولي في هذه اللحظة. رأيت تامر عبر الغرفة يتحدث ويتحدث ويهتز ويصرخ ويستنكر الخطأ الشنيع. رأيت أعينًا تنظر إليّ بخجل والبعض الآخر ينظر بشفقة، فقد شعر الجميع بحجم الخطأ الذي وقع. وخلال هذا كله لم أشعر بأي من مشاعرهم، لقد رأيت غضبًا! شعرت به في كل جسدي وبالرغم من وجود الجميع بالغرفة وكلامهم فإنني سمعت صوتا واحدا فقط في رأسي.. زين! أغلقت عقلي عن كل السلبية التي أحاطت بالغرفة فكان تامر يدافع ويتكلم بالنيابة عنا جميعا . تخيلت أطفالي يلعبون ويسعدون بالاحتفال وكيف سيكون هذا الفصل من حياتنا وراءنا في النهاية. تخيلت أنهم عرفوا أن سعادتهم سُرقت مرة أخرى، لكن هذه المرة بسبب بني آدم أخطأ في عمله. جلست هناك هادئة كاتمة غيظي أنظر إلى تامر الذي تحدث وتحدثتْ معه كل عضلة في جسده، أخجلهم جميعا ولكنه لم يهن أحدًا. كانت رغبته في حماية أسرته وصلت لذروتها فحتى عندما توقفت كلماته.. قالت نظراته كل شيء .

تُظهر لنا الحياة أحيانًا جانبًا شديد العنف والوحشية من واقعها، تقرر تغيير الأشياء والأحداث بسرعة مذهلة وتسرق السعادة بدون سابق إنذار. فعندما ظننت أن خطوة واحدة تفصلنا عن خط النهاية، جرفتنا الحياة عشر خطوات إلى الوراء. ليس بالمرض نفسه ولكن بما يفعله المرض ذاته، فلم تفارقني صورة أطفالي الذين يلعبون في تلك

اللحظة وشعرت بجسدي يقوم بطريقة آلية ويتوجه إلى الباب.. لم أرد أن أتواجد في هذه الغرفة أكثر من هذا.. خرجت تاركة كل الأشخاص خلفي، ولكن قبل أن أغادر وقفت وانتابتني رغبة رهيبة في الانتقام، فعدت وواجهتها، سمعت كل الأصوات في رأسي تتحدث في آن واحد، شعرت بالكثير من الكلمات تريد الخروج، ولكني بدلًا من ذلك نظرت إلى الدكتورة R وقلت : "إنتي أم! لازم تفهمي إحساسي! وقبل ما أمشي ومشوفش وشك تانى.. اعرفي إنك لازم تعيشي كل يوم في حياتك فاكرة إنتي عملتي إيه وحسستيني بإيه، أنا عمري ما هسامحك " مشيت.. ومع كل خطوة كان شعوري بالغضب يزداد أو كأنه يسير بجانبي كظلي، وكنت أعلم أن أصوات العقل تقول إنها مجرد بشر.. والإنسان يخطئ، ولكن صوت الغضب كان أعلى وقرر أنني لا يمكن أبدا أن أنسى. ظللت أمشي حتى خرجت من المبنى، شعرت أن تامر يقف بجواري بعد بضع دقائق، وقفنا هناك نحدق في نفس الاتجاه بصمت، وكان صوت أنفاسنا عاليا يعلن بوضوح أن غضبنا بلغ ذروته. مررنا بهذه اللحظات كثيرا وتعلمنا ألا نسمح لها بالسيطرة أكثر من المطلوب.. فوقفنا نستمد قوتنا من الهدوء.. فكلما مرت الثواني هدأ إحساسنا بالانتقام ووظفناه بعقل.. جاءني صوت تامر لينتشلني من أفكاري قائلا : "اللي حصل ده يفضل هنا.. محدش يعرف لأننا مش حمل كلمة تتقال غلط قدام زين وتكسر قلبه.. ده لو ضعف ولا حس بحاجة.. حنضيع كلنا ".

أومأت برأسي بمزيج من الألم والتعب والموافقة في نفس الوقت قائلة : "زي ما إحنا.. لسة مخلصناش بس قربنا. لازم نفضل زي ما إحنا ".

الوقت !

" من المعاناة خرجت أقوى النفوس،

فالجروح والندوب تكوِّن أقوى الشخصيات ".

جبران خليل جبران

لا أعتبر الانهيار والوقوع أصعب شيء في الحياة.. ولكن النهوض مرة أخرى والثبات بعده هو أصعب مرحلة على الإطلاق. قرأت مرة مقولة علقت في ذهني "إن الوقوع والانهيار هو جزء من الحياة، ولكن الصعود والقيام بعده هو الحياة نفسها " وأنا اخترت الحياة! اخترت المعيشة دقيقة بدقيقة بسعادة عن الموت ببطء كل يوم، اخترت المعيشة بقوة بالرغم من عجزي عن تغيير الواقع. قمنا وتعاملنا مع كل هؤلاء الناس السعداء يحتفلون حولنا وبقي ما حدث سرًا لم أنطق به غير للمقربين لي حفاظا على نفسية زين . لم يكن أسهل شيء ولكن كان خياري، كان وعدي لنفسي ولأطفالي. وقررنا النهوض والصمود ومواصلة القتال. قررنا تحدي الوقت بالاستعداد بقوة لكل ما يأتي به، ولكنه كان بطيئا .

كانت آخر تجربة إكلينيكية من العلاج المناعي، التي من المقرر أن يتلقاها زين قد انتهت، وهو ما يعني أن بقاءه في المستشفى قرب على الانتهاء وقربنا خطوة أخرى من كوننا في منزلنا أكثر، بعيدا عن المستشفى والمرض. لم يكن عقلي مستعدا لفهم هذا فكان مبرمجا ومدربا على القتال وليس الراحة !

وجدت نفسي جالسة على الكمبيوتر بعد أن أرسلت "رجالتي " (زوجي وابني) إلى المستشفى مرة أخرى.. مدة بقاء زين في المستشفى كانت تتراوح ما بين أسبوع وشهر في كل مرة للحصول على العلاجات المختلفة لمهاجمة سرطانه، وفي كل مرة أحزم فيها الحقائب وأسلم فيها عليهم، أعتقد أنها ستصبح أسهل أو على الأقل سوف أعتاد عليها، لكن لا! البيت يشعر بالفراغ والحزن في كل مرة ألعب وأقضي الوقت مع أميرتي ملك التي تكفي روحها لملء الغرفة أنام بجانبها وأحاول تخفيف دموعها في كل مرة يغادر والدها وأخوها، ثم أحزم حقيبتي وأستعد لدوري غدا عندما أذهب وأبدل مع تامر لآخذ دوره في المستشفى ويأخذ دوري في المنزل .

في أحد الأيام وضعت ملك في سريرها وجلست أتأمل سقف منزلنا وأنا أسمع الهدوء حولي، وبالرغم من حب كل أم لهذه اللحظة في آخر اليوم.. اللحظة التي ينام فيها الأطفال وتخلو بنفسها في هدوء، لكني كرهت هذا الهدوء فكان يشعرني بالوحدة ويجبرني على التفكير.
جذبت مفكرتي وكتبت : "معقولة دي تبقى آخر مرة ألم فيها شنطة المستشفى؟ آخر مرة أسلم على زين وتامر وأبات لوحدي أنا وملك؟ آخر مرة أعيش على بسكوت لأيام وأنام على كرسي؟ آخر مرة أشوف زين بيتألم في سرير مريض؟ معقولة دي تبقى آخر مرة نسلم على صحابنا الممرضات؟ خلاص جت اللحظة اللي ناخد معاهم صورة ونزورهم من غير سرطان؟ آخر مرة أمشي في ممرات المستشفى بعد ما زين ينام عشان أقتل الوقت؟ آخر مرة أشوف أهل زيي ونسلم على بعض بابتسامة عنينا؟ آخر مرة نصبّر بعض إن الطريق قرب يخلص؟ وكلنا حنروح قريب؟ معقولة دي آخر مرة أنام وأنا شامة ريحة المنظفات واسمع صوت مكنة الهوا في سقف كل اودة؟ معقولة دي اللحظة اللي استنيناها من زمان.. غريب قوي الوقت ده.. بيعدي ببطء لما نعوزه يجري، ويجري بسرعة لما نعوزه يهدي عشان نلحق نفهم ونحس. عدى أكتر من سنة من ساعة زين ما تعب، 14 شهر من مستشفى وعيا وعلاج شغال وعلاج مش شغال ووضع شبه مستحيل.. بس الحمد لله عشناه وخلصناه. يا رب فاضل زقة بقا خلاص زقة والوجع يخلص . بعد التعب والإرهاق.. لا إرهاق إيه؟ ده استنزاف بس نحتفل بقا ونخلص! الدكاترة بيقولوا نفضل نعمل فحوصات كل تلات شهور ولو بعد خمس سنين فضلت الفحوصات كويسة يبقى زين خف! خمس سنين إيه وبتاع إيه.. إحنا حنحتفل كل يوم مش حنستنى خمس سنين طبعا! انا لسة حستنى لما هم يقولوا أفرح إمتى؟ ربنا اللي بيقول ".

خففت الأضواء في غرفة الطعام حيث جلست أعالج نفسي بالكتابة، أطفأت التليفزيون وجلست أحدق في الكمبيوتر. أمسكت بالقلم الأسود الغليظ وعلّمت على مرحلة أخرى من العلاج انتهت، وشعرت بالارتياح لرؤية علامة X الكبيرة في الأوراق التي تمثل خطوة أخرى نحو هدفنا، ربما هي المرحلة الأخيرة من العلاج في المستشفى ولكن ليست المرحلة الأخيرة من العلاج. نحن معتادون تماما على العيش لمدة 15 دقيقة في كل مرة، لذا فإن رؤية الأهداف القصيرة تكمل وتتم بمثابة إنجاز كبير. فلا يوجد أي طريقة طبيعية تساعدنا على التخطيط أو التفكير في الأيام والأسابيع المقبلة، وكلما حاولت ذلك يرفض عقلي وجسدي سويا. فقد علمنا الوقت على مدى 14 شهرًا أن

نتعامل بمبدأ الـ 15 دقيقة، لذا وبالرغم من كون الحياة بعد السرطان أمل وحلم.. ولكنها كانت واقعا جديدا نحتاج التعود عليه والتكيف معه .

انتهت الجولة الأولى

"كن شاكرًا لما لديك وسيأتيك

أكثر مما طلبت ".

أوبرا وينفري

نتخبط في الحياة بقوة في بعض الأحيان لدرجة أننا نفقد كل أنواع السيطرة، ليس على الوقت والأحداث من حولنا فحسب، بل على أنفسنا. نشعر بأننا فقدنا هويتنا في وسط التفاصيل اليومية التي تحيط بوقتنا، وتجبره على التحرك بسرعة كبيرة، حيث نشعر أننا لا نتخذ خطوات فعلية، ولكننا نتحرك بشكل آلي. يطلق على هذا الإحساس الـ survival mode أو نمط التعايش والبقاء على قيد الحياة .

كان شهر أبريل من عام 2014 عندما اتجهنا إلى المستشفى في الطريق الذي أتقناه، ومشينا في الطرق المألوفة نحو عيادات الأطباء، والتقينا بوجوه مألوفة، ووجدنا أنفسنا جالسين في غرفة الانتظار نفسها منتظرين الإجابات. حين جاء الدكتور "الذى اخترت أن أسميه بدكتور الظلام! لسبب واحد فقط ألا وهو أنه كان محلول مُركّز سواد وكآبة !" جاء ليعلن أن نتائج المسح الذري قد عادت، وأنه لا يوجد أثر لأي خلايا السرطان! ذهب السرطان كله! كل شبر من الجسم المصاب بالسرطان أصبح الآن خاليا ونظيفا. لم يكن الإحساس الذي أشعر به إحساسا بالسعادة، فقد كان الأمر راحة أكثر منه سعادة.. لقد سرقت السعادة من ذي قبل، وأصبح لديها الآن طعم ومعنى مختلف أصبح لدينا خطة زمنية فعلية لأول مرة منذ ما يقرب العامين، فقد انتهى العلاج رسميا باستثناء بعض الحبوب التي تؤخذ عن طريق الفم يوميا، يعتبر زين رسميا متعافيا من السرطان، وكل ما هو مطلوب أن نستمر في الفحوصات كل ثلاثة أشهر لمتابعة الحالة .

رأيته يتخطى بخطواته السعيدة يقفز ويجري نحو جرس الانتصار الشهير على الحائط توقف ولف رأسه لينظر إلينا وابتسم بشكل كبير بفمه الصغير المليء بفراغات الأسنان الطفولية، شب على أصابع قدميه لقرع الجرس الذي يشير إلى نهاية الرحلة. كان الجرس موجودًا لكل مريض تم علاجه، وكان رنين الجرس علامة على النصر، وبينما كان زين يرن جرسًا، وقفت أنظر إليه وعلى وجهه ابتسامة كبيرة

مرتبكة، فقد أصبحت الحياة غير الطبيعية بمثابة الحياة الطبيعية لنا، وأصبح استئناف الحياة الطبيعية وضعا جديدا وغريبا لعقلي المنهك .

يظهر الله نفسه دائما عند حاجة العبد إليه وفي أكثر الطرق غير المتوقعة على الإطلاق، فمع مرور الأيام واقتراب السنة الدراسية من نهايتها، كان استنزافنا الذهني واضحا وبشدة، وبالرغم من عودة الأطفال إلى روتين شبه طبيعي شعرت بفراغ في أيامي! بدأ اندفاع الأدرينالين الناتج من الإحساس المتواصل بالقتال يتلاشى ببطء، كنت سعيدة للغاية بعودة بعض الحياة الطبيعية إلى أيامنا، ووجب عليّ أن أتوقف، وأن أفكر وأدرك أن السعادة لها معنى مختلف الآن. كانت السعادة دائمًا مشوشة بمفهوم وضع الأهداف وتحقيقها. كان يوجد ارتباط قوي بين فهم الإنسان للشعور بالسعادة وربطها بالإنجازات الكبرى أو الطفيفة .

بينما في بعض الأحيان يرتبط إحساس السعادة بالقدرة على تحديد الذات نفسها وإيجاد ثبات نفسي يبعث على السلام والهدوء بدون أي مؤثرات خارجية. عدت إلى الكتابة مرة أخرى، وبالرغم من كوني في وضع استعداد دائم لعدوى السرطان فقد وجدت نفسي أبتسم أكثر، وأستمتع أكثر بالوتيرة البطيئة للحياة. كانت لعبة التوازن بين أدرينالين القتال وهدوء الحياة الجديدة بعد السرطان ليست سهلة ولكن حتمية. كنت بحاجة إلى دفعة أكبر لملء روحي، كنت بحاجة إلى نوع مختلف من الهدوء النفسي والثبات الذي طالما انتظرته وأخيرا توصلت إليه مع عائلتي الصغيرة.. كنت مفتقدة عائلتي الكبيرة !

جاء شهر يونيو 2014 عندما قرر تامر أن يعتني بالأولاد وحده أرسلني في رحلة وإجازة كنت أحتاجها بشدة، فقد مضى وقت طويل عندما كنت وحدي مع والدي وأخي. تحتاج الروح في بعض الأحيان إلى العودة إلى الأساسيات البسيطة في حياتنا للعثور على أنفسنا واستعادة هويتنا لتكملة المشوار. رأيت السماء الزرقاء تبعد، بينما اقترب السحاب الأبيض من نافذة الطائرة ملت برأسي إلى الوراء، وأغلقت عيني وبدأت في التنفس. تخيلت أني كأم تسافر لوحدها للمرة الأولى، سوف أستغل هذا الوقت وأستمتع بقراءة كتاب، أو مشاهدة الأفلام بدون أي انقطاع أو حتى تناول قطع الحلوى الخاصة من وراء الأولاد، ولكن بدلًا من ذلك وجدت نفسي أستمتع بالتنفس بهدوء! جلست في تلك الطائرة تخيلت لحظة هبوطي ورؤية أخي مما جلب السعادة إلى قلبي، كان تقديري لنعم الله الصغيرة حولنا مثل

التنفس باستمتاع في هذه اللحظة في تزايد مستمر، تعلمت أن أقدر كل النعم من حولي، وأن أرى الأشياء الجميلة بالرغم من قبح الواقع. فها أنا على متن طائرة لألتقي أبي وأخي بعد رحلة نفسية مرهقة استمرت قرب العامين، ولكني في طريقي لاسترداد ذاتي القديمة مرة أخرى. لأجد الفتاة الصغيرة بداخلي التي فقدت أمها في يوم من الأيام واختارت أن تخفي مشاعرها بداخلها عندما أصبحت هي نفسها أما . اشتقت للاستمتاع البسيط بالتحدث معهما بينما نستمتع بمنظر طبيعي أو فيلم في التليفزيون. مرت الساعات سريعا واتحد الفرسان الثلاثة مرة أخرى، فقد تعلمنا أن نتحد من قبل ونرتفع عن آلام الواقع سويا، وها نحن نرتفع اليوم وننهض ونتعامل مع الحياة مرة أخرى !

لدينا الاختيار أن ننظر إلى الوراء ونفخر بما أنجزناه.. ربما لم نحقق الأحلام الكبيرة التي كانت لدينا منذ بضع سنوات ولكننا فعلنا ما هو أكبر! فقد أجبرتنا الحياة على السقوط ونهضنا نحن من جديد. تعلمنا وأخذنا ما تعلمناه معنا، فقدنا الكثير ولكننا أيضا اكتسبنا الكثير في الرحلة ذاتها. وفي النهاية تعلمنا المعنى الحقيقي للسعادة في كل لحظة حاضرة نعيشها .

عدنا بالرغم من وقوعنا، قمنا وقوينا بالرغم من ضعفنا.. وجدنا طريقنا وبقينا بثبات على قيد الحياة .

تاني وتاني

"الشجاعة ليست في القدرة

على الاستمرار، ولكنها الاستمرار

عندما لا تكون لديك القوة ".

تيودور روزفلت

حاولت الاتصال بتامر، ولكن الشبكة كانت ضعيفة داخل المطار. ركضت بسرعة إلى الحقائب. شعرت بأنفاسي المتلاحقة تثقل وتتزايد. اتصلت مرة أخرى لأتأكد مما أخبرني به، لكن لم يُجبني أحد. أمسكت حقيبتي واندفعت خارج المطار المزدحم للبحث عن أي وجه مألوف! لكن بدا كل مَن حولي مجهولي الهوية، أين تامر وزين وملك؟ لماذا لا يجيونني بعد رحلتي؟ كانت خطتنا كالآتي : سأغادر وآخذ استراحة مع أخي وأبي؛ الفرسان الثلاثة معا مثل الأيام القديمة، وأعود إلى ملك وزين وأجدهما في المطار. عاودت الاتصال بتامر متمنية أن يتراجع عما قاله منذ دقائق معدودة؛ أن يخبرني أنه في طريقه إليَّ وأنه ليس في المستشفى؛ أن أراه، وأن أكون معه.. الآن .

رحلة 5 أيام كانت كافية لالتقاط الأنفاس! فقد كنت بحاجة إلى هذه الاستراحة بعد 18 شهرًا من العلاج، اشتقت إلى أخي وأبي كثيرًا، ولكن أين حياتي الحالية؟ تساءلت لماذا أقف يصاحبني شعور بالضياع؟ سمعت صوت تامر : "أنا جيت الصبح قبل ما أطلع لك المطار عشان زين اشتكى من صداع تاني. مردتش أقولك وإنتي مسافرة وقلت يمكن الدوا بتاعه. قلت هتأخر ساعة بس عملوا أشعة على المخ ومش حيمشونا! تاني يا رضوى تاني! الكابوس رجع تاني.. المرة دي في المخ ".

ألقيت هاتفي وبدأت في البكاء بشكل هستيري أمام المطار. مرت دقائق قليلة بدت وكأنها عمر كامل، حتى ظهرت صديقتي وأخذتني داخل سيارتها . بدوت وكأنني داخل فيلم سيئ الإخراج، مشاهده سريعة ومتقطعة، تحدث بشدة ولكن بدون توضيح. رأيت اسمها على هاتفي وأجبت صارخةً : "دكتورة M ، قوليلي إن ده غلط ومش بيحصل تاني! لا لا! مستحيل يكون الكابوس ده بيرجع تاني! إحنا لسه

مخلصين! إحنا ملحقناش !".

دكتورة M: "أنا آسفة جدا يا رضوى شكله بيكبر بسرعة على الدماغ. إنتي فين دلوقتي؟ أنا شفت الأشعة وجايالك حالا. هم بيحجزوله أودة.. اهدي واثبتي لحد ما أجيلك ".

أغلقتُ الخط وشعرت بآلام حادة مفاجئة في معدتي وصدري، وكأن المرض فاجأني دفعة واحدة في كل جسدي .

شعرت بهواء كاليفورنيا الحار المخلوط بتلوث شوارع لوس أنجلوس يلفح وجهي، وصلت إلى مقبض الباب بينما كانت السيارة تتحرك ولوحت إلى صديقتي بيدي اليسرى أن تتوقف. استسلم جسدي للعوامل الخارجية وانهار تماما، لم أشعر بنفسي إلا وأنا ألقي بجسدي خارج السيارة وأقع على ركبتي وأنا أتقيأ. لم أشعر بمَن حولي حتى سمعت همهمات، ونظرت لأجدني محاطة بوجوه صارمة ولكن طيبة، في محل تصليح سيارات على جانب الطريق، بعضهم جاء بمناديل وآخرون بماء. تحاملت على نفسي ودخلت السيارة مرة أخرى .

ازداد قلقي عندما بدأ مبنى المستشفى يقترب، كنت أرغب في رؤية أولادي، ولكني كنت أرغب في رؤية تامر أكثر! كان وحيدًا تمامًا، فقد استيقظ هذا الصباح ظنًا منه أنه سيتوقف قليلًا في المستشفى للتأكد من أن زين على ما يرام، وأن صداعه طبيعي، ولكن انتهى به الأمر إلى أن يتم سحبه في غرفة جانبية ليسمع أسوأ خبر يمكن أن يسمعه أب! رأيته جالسًا في حديقة المستشفى وركضت إليه، أوقفتني ملك بابتسامتها الواسعة، تنادي اسمي وهي غير مدركة لماذا تحييني في المستشفى وليس في المطار كما اتفقنا!
احتضنتني بشدة ومعها لوحتها التي رسمتها ملونة بعبارات الترحيب.
نظرت إلى تامر وهي في حضني وقالت عيوننا كل شيء؛ لقد عاد!
لقد عدنا! رحلتنا لم تنته، بل عادت للمربع صفر! ذهبت إليه وجلست على ركبتي، ووضعت رأسي في حضنه وبكيت. ظلت هواتفنا ترن معلنة أننا في صراع ضد الزمن وأننا في حاجة لاتخاذ قرارات الآن.
جلسنا وتجنبناها راجين من الله دقيقة واحدة فقط! دقيقة تساعدنا على إدراك ما يحدث وأن نتماسك سويا .

نهضنا وسرنا نحو المصاعد متجهين إلى غرفة المستشفى المُعدَّة لنا، رأينا مجموعة من ممرضينا يسيرون نحونا وأعينهم تقول كل شيء!

لقد عرفوا! عانقونا ولسان حالهم يقول "احنا هنا ومعاكو ". همست إحداهن في أذني : "امسكي نفسك وخليكي قوية عشان نعرف نرن الجرس تاني.. حيخلص تاني ونحتفل تاني ".. توقفت وسحبت نفسي من ذراعيها وقلت بصوت ضعيف : "حنخلص فعلا؟ ".

جلسنا في الغرفة، وقررنا أن يذهب تامر مع ملك بينما انتظرت أنا مع زين، كانت سلسلة من الأشعات مطلوبة أولها رنين مغناطيسي على المخ. فقد كنا نعلم أن الورم سريع النمو على المخ، لكننا أردنا أن نعرف حجمه ومدى انتشاره وإن كان في أي جزء آخر من الجسم. بينما استقر زين بداخل جهاز الرنين المغناطيسي المزعج وجلست أنا في انتظاره بالخارج على الكرسي الصغير بجانب الحائط. شعرت كأن أنوار جسدي تطفأ واحدا تلو الآخر. كان إرهاق السفر وضغط الأخبار قد تراكم وأعطى عقلي أمرا بالتوقف !

سمعت صوتا رقيقا يخبرني أن أستلقي على سرير بالغرفة حتى ينتهي زين من أشعته. نمت بالفعل ورأيت حلما سعيدا؛ رأيت نفسي سعيدة منغمسة في ثقافة وتاريخ سنين مع أخي وأبي في شوارع أوروبا، ورأيت لمحات من رحلتي التي بدأت منذ 5 أيام، وانتهت قبل 10 ساعات وانهارت منذ 9 ساعات! رأيت نفسي مبتسمة ولكن ضوضاء جهاز الرنين المغناطيسي في الغرفة المجاورة والسرير القاسي الذي استلقيت عليه كانا كافيين ليفيقاني سريعا لأدرك أن هذه اللحظات السعيدة كانت حلما، لم أرد الاستيقاظ! كرهت الواقع وتمنيت لو ظللت نائمة ومغلقة عيني .

وبعد ساعات، كان عقلي فَقَدَ الشعور بالوقت لم أعرف إذا كنا ليلا أو نهارا. ما بين أجهزة الأشعة والأطباء. مرت الأيام بسرعة، أسرع مما يدرك العقل. عدنا إلى تبديل المناوبة بين المنزل والمستشفى، بعد ما بدا وكأنه حلم قصير وانتهى عندما أصبحنا معا تحت سقف واحد. مع وجود وحش سريع النمو في الدماغ، كنا بحاجة إلى إجراء المزيد من عمليات الفحص لنرى مدى شرور عدونا ومدى انتشاره .

مر أسبوع من عدم الفهم والتعب والتبديل بين البيت والمستشفى حتى جاءت النتائج لتعطينا صورة كاملة عن الوضع الحالي. أعطينا زين لعبة وطلبنا من الممرضات أن يراقبنه، بينما خرجت أنا وتامر نتحامل على بعض في ضعف في طريقنا إلى غرفة الاجتماعات .

كان مساء الأربعاء عندما جلسنا في هذه الغرفة الصغيرة على الأريكة الرمادية ننتظر حضور الفريق الكامل، كانت غرفة مملة قابضة بالرغم من لوح الأطفال الصغيرة الملونة .

كان الهواء ثقيلا جدا في الغرفة، وبدا التنفس شيئا صعبا. دخل الجراح بالمعطف الأبيض، وقامته الطويلة القوية.. لم أستطع إلا أن أنظر على الفور إلى يديه، فقد كانت هذه هي الأيدي المفترض أنها سحرية.. أو مميتة! من يعلم؟ كان يبدو واثقا جدا من نفسه، ولكن بالنظر إلى وجهه عرفنا أنه اجتماع صعب وليس سهلًا على الإطلاق. لم يكن مرتاحًا كونه جزءًا من عملية صنع القرار، ولكن خبرته جعلت وجوده معنا ضروريا. وبصورة بطيئة، وصل عدد أكبر من الناس، دخلت طبيبتنا ثم الممرضة والمشرفة الاجتماعية .

أخذت نفسا عميقا وسمعت الأصوات في رأسي تقول "يلا بسم الله نبدأ ".

كان الحديث يدور حول اتخاذ قرار حكيم حول كيفية مهاجمة هذا الورم الجديد الذي ينمو بقوة داخل دماغ زين. كان الدكتور K -الجراح-صامتا في معظم الوقت بينما قالت الدكتورة M: "فرصتنا أحسن شوية لو شلنا الورم وبعدين إدناله علاج.. بس لو إدينا علاج بس مش حنعرف نقضي عليه.. مش بضمن حاجة بس من خبرتي الأورام سريعة النمو دي بيبقى أحسن نشيلها الأول ". ظللت أحاول قراءة وجهه، بينما كان ينظر بصمت أمامه في الفضاء الفارغ. استمرت الدكتورة M قائلة : "ممكن برضه ناخد عينة منه الأول عشان نتأكد إنه نيروبلاستوما.. أصل شكله على الأشعة أنه هو، بس نادر أوي إنه يرجع في المخ !". سمعت الأصوات في رأسي تصرخ "أنا لو سمعت كلمة نادر دي مرة كمان حضرب حد ".

قاطع الدكتور K الأصوات في رأسي قائلا : "أنا مش حفتح عشان آخد عينة! لو اشتغلت على المخ يبقى عشان أشيل الورم.. النتيجة متستحقش المخاطرة ".. أصاب كلامه الجميع بصمت، حتى الأصوات في رأسي سكتت محاولة لاستعادة ما قاله للتو، استمر في التحدث : "أنا بشتغل على أكثر من 2000 عملية في السنة.. وأقدر أقولكوا دي حتبقى واحدة من أصعب 5 عمليات! لأن الورم جوا الـ "CNS". يبدو أن وجهي أظهر ارتباكي فبينما سمعت الأصوات في عقلي تقول "الله يطمنك، وإيه CNS ده؟ " ، استأنف : CNS هو الجهاز المركزي للجهاز

العصبي، بمعنى إني ممكن أشيل الورم بنجاح، ولكن مخاطر فقدانه لحاسة أو أكتر عالية. ممكن ينسى إزاي يتكلم، إزاي ياكل، ممكن ينساكوا إنتو شخصيا! عشان كده لو حفتح يبقى لازم المخاطرة تستاهل. مش حفتح عشان عينة بس !".

مع وضوح الرؤية ثقل الهواء في الغرفة أكثر.. أحاط بنا إحساس داكن مع إدراك مدى قرب ملاك الموت لعائلتنا مرة أخرى.. إما أن نخسر ابننا بسبب ورم لم يُعالج بشكل صحيح، وإما نفقده ونحن نحاول علاج الورم بشكل صحيح، ونحن كبشر عاديين مطلوب منا أن نقرر ونختار بين السيئ والأسوأ. قال الجراح كلماته ووقف معلنا مغادرته الغرفة، توقف ونظر إلينا وقال : "أنا مقدرش أقولكوا اعملوا العملية أو متعملوهاش.. بس للأسف إنتو لازم تقرروا بسرعة لأنها عملية كبيرة وأنا محتاج معايا مساعدين وجراحين.. عرفوني بسرعة. جود لاك ".

(هو قال "جود لاك؟ " حظ إيه اللي حيفيدنا فاللي إحنا فيه ده! ده إحنا محتاجين معجزة!). تهامست الأصوات المرتبكة المتخافتة في الغرفة، وبدأوا يخرجون واحدا تلو الآخر، أما أنا وتامر فكنا في حالة صمت وذهول. كنا خائفين أن نعود إلى زين بدون أي إجابات، فلم نكن نعلم أي قرار هو الأصح .

فجأة اختفت الطفلة بداخلي التي كنت في أولى خطواتي لاستعادتها مرة أخرى، بحثت بداخلي عن المرأة الناضجة لترشدني إلى أي طريق أذهب وأي قرار أتخذ. وبينما ذهب تامر إلى ملك ظللت أنا مع زين أصلي وأفكر بلا أي أصوات في عقلي. في المساء سمعت طرقات على الباب.. كان الدكتور السخيف أو كما كنا نسميه في السر (دكتور الظلام أو الدكتور البومة)! كان رجلًا مقبضًا كئيبًا يشع بالطاقة السلبية، مهما ابتسم أو ضحك كانت روحه الداكنة الغامقة تشع من شخصيته. جاء ليحل محل دكتورة R بعد غلطتها الكبيرة ويملأ الفراغ حتى عودة دكتورة M. دخل الغرفة قائلًا : "أنا شايف إنكو لازم تاخدوه البيت! فرص نجاح العملية صغيرة أوي.. شبه مستحيلة. متتعبهوش بقا خلاص وخدوه وروحوا واستمتعوا معاه بآخر أيامه ". قال رأيه القاتل وأعطى نفسه الحق في أن يقرر لنا. قرر أنه يعلم ما يجب أن نفعل وبينما نحن غارقون في كيفية اتخاذ القرار جاء هو ليعلن أن الوقت قد حان أن نودع ابننا. أنا أومن بالعلامات بشدة فقد دعوت الله أن يعطيني أي إجابة، يرشدني لأي طريق، ثم جاء الدكتور البومة ليدمر ما تبقى لي من الأمل ويأخذ بيدي إلى العالم الآخر، العالم الذي طالما اقتربنا منه

وخشيناه ولكن توقعناه ولم نحاربه. أخذت نفسا عميقا وابتسمت وقلت : "شكرا ".

لم أبتسم لأن ما قاله كان ممتعًا، ولا لأني كدت أفقد عقلي كما اعتقدت عائلتي.. ابتسمت لأنني حصلت على جوابي! حصلت على إشارتي! قرر الله أن يرسل لي إنسانًا آخر لا حول له ولا قوة ليؤكد مرة أخرى مدى ضعف الإنسان عندما يواجه شيئًا كبيرًا مثل تجربة الموت القريب أو في حالتي فقدان قطعة مني؛ ابني. قرأت بين كلماته العاجزة استسلامه وتشجيعه لي على الاستسلام وتذكرت.. كيف يمكنني أن أستسلم ببساطة؟ كيف يمكنني أن أتخلى عن تلك الحزمة الصغيرة من النور المعطاة لي في نهاية نفق مظلم جدًا؟

جاء الصباح وقمت مبكرا أحزم حقائبنا، انتظرت تامر بفارغ الصبر وعندما دخل قلت : "خليهم يفتكروا إننا مش حنعمل العملية. يلا بينا نروح بيتنا. إحنا محتاجين نكون مع بعض، لوحدينا مع ولادنا ".

غادرنا قاعة المستشفى ونحن ندفع زين على كرسيه المتحرك وهو يعاني من صداع حاد وورم سريع النمو في الدماغ. شعرت بالممرضات والأطباء من خلفي، وكأنهم يرون سحابة الموت فوق رؤوسنا. كنت أعلم شيئا واحدا، أننا كنا متعبين جدًا للتفكير، لم نستطع التحدث أو قضاء يوم آخر في المستشفى. سنأخذ القرار على أريكتنا الجميلة داخل منزلنا الدافئ. وصلنا إلى البيت وأغلقنا هواتفنا، وكأن الأحداث كلها تتكرر مرة أخرى. ها نحن نهرب من المستشفى مرة أخرى إلى منزلنا لنأخذ قرارات مصيرية فى ظرف 24 ساعة فقط .

تامر : "زين إنت عارف عينك شكلها عامل كده ليه وليه راسك بتوجعك؟ ".

زين : "أيوة! أنا سمعتكوا بتتكلموا.. الكانسر رجع تاني مش كده؟ ".

ملك : "يييي تاااني؟ ".

تامر : "أيوة رجع، المرة دي في مخك. قالك بقا أنا حاولت في جسمه بس الولد ده ذكي أوي أروح مخه بقا ".

زين : "أيوة ذكي! ومش عايزه في مخي بقا !".

وبينما أرتب أنا أفكاري لأحضّره للاحتمالات التي عدنا إلى منزلنا لنفكر فيها والقرارات التي يجب أن نتخذها.. قلت : "بص هو فيه حاجات ممكن نعملها ...".

قاطعني زين قائلا : "طب ما نشيله ونخلص! أكيد يعني الدكاترة عندهم حاجات ممكن يدخلوا يشيلوه بيها ".

أنا : "أيوة بس ده معناه إنك حتقعد في المستشفى شوية ".

زين : "طب ما أنا كده كده هناك.. أشيله واخلص بقا ".

علامة أخرى أرسلها الله لي من فم ابني. لم أستطع التشكيك في قرارنا بعد الآن. فما كان من المتوقع أن يكون واحدًا من أكثر المحادثات العائلية المجهدة في حياتنا، انتهى به المطاف إلى أن يكون طفلًا مصابًا بالسرطان مصممًا على مقاومته بغض النظر عما يتطلبه الأمر، وأختًا لمريض السرطان مستعدة أن يتم توجيهها إلى أي مكان أيضًا للمساعدة على تنفيذ كل هذا. أما تامر وأنا فجلسنا نحدق في شاشة التليفزيون ودموعنا عالقة في أعيننا وعقولنا مخدرة. وفي نفس الليلة بعد أن نام الأطفال انتابتنا لحظة صمت قصيرة عندما نظرنا إلى بعضنا بعضا وأخيرًا قلنا بصوت عالٍ : "يلا عملية؟ ".

كنا نعد أنفسنا إلى يوم عصيب آخر مع رحلة أخرى إلى المستشفى، ولإخبار الجميع الذين ينتظرون قرارنا بفارغ الصبر. لم أستطع النوم وقمت إلى الصلاة، سجدت على سجادة صلاتي بصمت بعد أن غلب النوم الجميع وطلبت من الله التوجيه.. فلم أكن فقط على وشك البدء في فصل جديد في حياتي لمكافحة السرطان مع ابني، ولكننا على وشك بدء ما يمكن أن يكون حياة جديدة مليئة بالمشاكل الصحية. قد نكون قادرين على التغلب على السرطان ولكن في المقابل يجب أن نكون مستعدين لأي ثمن قد يكلفنا .

قبل شروق الشمس ببضع لحظات رأيت في مخيلتي مشهدا، تذكرت رؤية الأمهات المبتسمات في ممرات المستشفى وهن يدفعن أطفالهن المعاقين على الكراسي المتحركة، لم أكن أبدي اهتمامًا لأن تركيزي كان دائمًا موجها فقط على السرطان، ولكن الآن أتذكرهن، يمكنني رؤيتهن بوضوح في رأسي. هؤلاء هم الأطفال الذين

لا يستطيعون تحريك أذرعهم أو سيقانهم أو التحدث أو الأكل. ما الذي

يجعلني أعتقد أنني أفضل منهن؟ أعطاني الله طفلًا يتمتع بصحة جيدة ولكن عندما يعطيني فرصة للحفاظ عليه ببعض الصعوبات.. أرفضها؟! من أنا لأقول لله "إما أن يكون ابني بصحة جيدة أو

لا أريده !" ، شعرت بموجة من القوة تنتابني. كنت مستعدة لفعل أي شيء كي أبقي ابني في أي شكل أو وضع. وصلت إلى هاتفي واتصلت بأبي في مصر، الرجل الذي كان يقضي وقتًا سعيدًا مع طفليه منذ بضعة أيام وينتظر الآن بفارغ الصبر ابنته وأول فرحته أن تخبره بما قررته هي وزوجها لأول مرة. قلت له : "بابا، إحنا قررنا نعمل العملية.. خايفين نكون بنرفض حتة الأمل الصغيرة اللي ربنا مديهالنا. تفتكر إن ده الطريق الصح؟ ".

أخذ أبي نفسا عميقا وقال كلماته التي حفرت بداخلي : "رضوى اسمعيني كويس يا حبيبتي.. لو زين قام من العملية دي مبيتكلمش إنتي وتامر لسانه، لو مش عارف يمسك حاجة إنتو إيديه. لو مش قادر يمشي إنتو رجليه وتشيلوه في كل حتة. إنتي وتامر يا حبيبتي حتحبوه كفاية عشان ميفتكرش الوجع ويفتكر بس حبكو ليه.. لو ربنا مدينا فرصة أمل وفتحلنا شباك لما أبواب كتير اتقفلت.. ناخدها ونشكره ونترجاه يجيب الخير ".

طلبت من الله علامة فأعطاني اثنتين! لقد ذكَّرني كيف أنه في كل الظلام الذي كان يحوطنا كانت رحمته واسعة ولا يزال يرسل لي الأمل، ذكَّرني كيف أنه ما زال يعطينا قوة وسط كل الضعف. ذهبت إلى النوم استعدادًا لليوم التالي، غاضبة من السرطان ولكن عندي سلام نفسي. كنت أعرف أن الرضا وتقبل الوضع هو الشيء الوحيد الذي أمتلكه في وسط كل هذا الجنون.. وخططت لأخذه بالكامل. قبلت بسلام. قررت أن أرضى.. قررت أن أقبل بسلام .

جزء جديد.. نفس القصة

"يجب أن نتقبل الإحباط المحدود،

ولكن لا يجب أن نفقد الأمل ".

مارتن لوثركينج

مرت 48 ساعة فقط من استمتاعنا بشحن معنوي وجسدي سريع بالمنزل.. كان الوقت قد حان لاتخاذ خطوات سريعة! شعرت بخطواتي طوال اليوم بطيئة ولكن ثابتة، أخذت نفسا عميقا وأمسكت هاتفي وفتحت صفحة التواصل الاجتماعي لأعلن للعالم قرارنا الذي انتظره الجميع بفارغ الصبر؛ كتبت "إحنا حنعمل العملية، العملية اللي ممكن تنقذ حياته أو تنهيها. العملية دي ممكن تكون بالنسبة للعالم كله أسوأ الاحتمالات، لكن بالنسبة لنا هي الأمل الوحيد اللي قدامنا. العملية دي هي خطوة جديدة، أول خطوة في فصل جديد من قصتنا اللي افتكرناها خلصت. من فضلكو ادعوا جامد ". تركت هاتفي لأبعد عن أي مكالمات أو أسئلة، وبينما تركت من حولي يستوعبون الأخبار الجديدة ويتعاملون مع مشاعرهم وأفكارهم.. كنت بدأت في التحضير لواحدة من كبرى خطوات حياتنا.. عملية المخ !

مرت الساعات ونحن نحزم حقائبنا، نرتب أمور ملك والعمل، واتجهنا إلى المستشفى في حالة من التخدير والصمت .

دفعنا زين على الكرسي المتحرك، لم يكن لدى صغيري البالغ من العمر سبع سنوات أي فكرة عما يحدث، كان الورم يعبث به بهذا السوء بسرعة. أردت أن أنظر في عينيه وأتأمل نظرته البريئة، لكن السرطان منعني! فقد ضغط الورم على عصب العين مما سبب حَوَلها وعدم استقرارها. أردت أن أعانقه بقوة، لكن السرطان منعني! فقد كان جسده الصغير في حالة من عدم الراحة. أردت أن أتحدث إليه طويلا، لكن السرطان منعني! لقد أربكه كثيرًا لدرجة أنه لم يستطع وضع كلماته معًا أو التركيز في محادثة واحدة. وبينما رأيت الطاقم الطبي يقترب بالسرير المجهز لأخذه إلى غرفة العمليات، صرخ صوت في قلبي أنه الآن هو كل ما أملك! فأنا لا أعلم ما سيحدث بعد ذلك، ولكني لن أدع السرطان يأخذ مني هذه اللحظة قفزت لأهمس في أذنيه أني أحبه، وأني سأنتظره بعد العملية، وأني سأبقى دائمًا هنا من أجله،

وأنه قوي بما فيه الكفاية ليقاوم السرطان! ثم جاء دور تامر بكلمات التشجيع في أذنيه، واتفقا أن يحرك إبهامه بمجرد أن يسمع صوته بعد الجراحة وقبّله، وأخبره بكل ما يمكن أن يقوله الأب ليؤكد له حبه وثقته في قدرته على هزيمة الوحش .

بمشاهدة الأبواب الكبيرة المزدوجة تفتح، ورؤية الجزء الخلفي من معاطف الجراحين البيضاء التي تطير قليلًا مع الهواء الطبي المضغوط في الغرفة.. اختفى جسد زين الصغير بسرعة وأغلقت الأبواب في وجهي لتذكرني بأنني ليس لديّ السيطرة على أي شيء. إن يد الله تتحكم في أيدي الجراحين. ولم يكن هناك أي شيء يمكنني فعله .

جلست أحدق في شاشة غرفة الانتظار، بينما يرمز لكل مريض برقم وجانبه وضعه في العملية.. ظل الرقم المخصص لزين يسلط الضوء على In O.R ، وهو ما يعني أن الأطباء ما زالوا يعملون في الجراحة. وكلما استغرق الأمر وقتا أطول وأصبح الجميع يشعرون بالقلق، أخذت هذا الأمر على أنه علامة على أنهم يعملون، وهذا يعني حدوث تقدم وأن زين ما زال معنا. نظرت حولي، أدركت أنني كرهت هذا الشعور المحيط بنا! كرهت توتر الجميع! كرهت الانتظار! كانت كل العيون متمركزة على تلك الشاشة الغبية، حيث كل مريض هو مجرد رقم .

انتابتني رغبة قوية لتغيير ذلك، كنت أرغب في الخروج من هذا العالم الصغير الذي أجبرت على أن أكون جزءًا منه. دسست سماعتي في أذنيّ، أمسكت بشوكولاتة في يدي، أغلقت عقلي عن قصد وأعطيته استراحة مما حولي. وبدأت أتفرج على أفلام. كنت مدركة أنني كنت موجودة جسديا مع الجميع في الغرفة، شاركت في أحاديث مقتضبة من حين لآخر، ولكن انتاب عقلي شعور سلمي شامل بأن الله هو الذي يتحكم، وقد كان.. بعد سبع ساعات تم استدعاؤنا في غرفة في انتظار الدكتور K ، دخل علينا وخطوط قبعته الجراحية تاركة علامات على جبهته، يبدو كأنه خرج للتو من معركة أو حرب. ومن الواضح أنه قد استُنفد وحل عليه التعب بعد 7 ساعات من مطاردة هذا الورم اللعين .

الدكتور K: "إحنا قدرنا نشيل الورم الرئيسي بس في حتت صغيرة على جدار المخ اضطرينا نسيبها علشان مكانها خطر، المفروض دي تروح بالعلاج، برضه فيه جرح كبير في راسه... إحنا حلقناله شعره و ...".

قاطعته بأنفاسي المتقطعة : "ثانية واحدة معلش.. يعني هو عايش؟ " ، أجابني : "أيوة العملية عدت كويس ونجحت بس مش حنعرف الأعراض الجانبية لحد ما يقوم ويصحى ". واصل الحديث عن الجراحة وكل ما حدث فيها، رأيت شفتيه تتحركان لكنني لم أسمع شيئًا! كل ما سمعته هو أن ابني على قيد الحياة، أي شيء آخر

لا يهم. الخطوة الأولى تمت بنجاح.. لقد عاش بعد الجراحة .

وبينما كنا نركض إلى غرفة الإفاقة لرؤيته، قام تامر بدفع الممرضين وتواصل مع زين الذي كان لا يزال مخدرًا وملفوفًا في خيوط وأسلاك المستشفى في كل مكان في جسده، كان يهمس في أذنيه وعرفت تمامًا ما كان يقوله. كان يطلب منه أن يعطيه علامة الإبهام إذا سمع صوته كما اتفقا سويًا. حبست أنفاسي فعندما كان يسأله تامر هذا السؤال من قبل، كان ليتحقق من أن زين كان يتعافى بشكل جيد، تلك المرة كان الهدف أن نعرف إذا كان زين لا يزال ابننا الذي نعرفه .

وقفت عند آخر السرير أشاهد تامر وهو يهمس في أذنه ثم يتراجع. قام زين بتحريك عنقه ببطء شديد في اتجاه تامر بعين نصف مفتوحة، وإبهام ثقيل جدا يناضل من أجل أن يتحرك، سمعت صوته الصغير الجميل يقول : "هاي ماما " ، ثم سقط مرة أخرى نائما تاركنا أنا وتامر على الأرض على ركبتينا نبكي بشكل هستيري .

لم أرد أي شيء من الحياة بعد هذا! لم أهتم إذا استيقظ وبحلول الوقت ذهبت كل حواسه أو حدثت كل الأعراض الجانبية التي أخافونا منها! كل ما أعرفه هو أن ابني حي وأنه يعرف من أكون .

يا الله.. ما أجمل عملك ومعجزاتك هنا اليوم !

الجمال في كل مكان

"عندما تدفعك الدنيا إلى ركبتيك،

فأنت في وضع مثالي للصلاة ".

رومي

مهما حاولت أن أبذل قصارى جهدي لأظل إيجابية في مهمتي للتغلب على السرطان، لم يكن هناك شيء يحقق ذلك مثل رؤية آيات الله وجماله في أفعاله. كنا نصبّر أنفسنا بالكثير من العبارات التحفيزية مثل "قوس القزح قادم بعد الأعاصير " أو "تذكر نصف الكوب الممتلئ ".. في النهاية وجدنا الجمال في كل مكان حولنا، كان هناك دائمًا شيء بيننا، وكان يجب علينا الاختيار ما بين إذا كانت أعيننا ستراه أم لا .

بينما كان زين نائمًا وأنا سارحة في مدى جمال ذلك اليوم من خلف النوافذ الزجاجية للغرفة دخل الدكتور البومة أو دكتور الظلام غرفة زين بالعناية المركزة، نظر إلى زين متعجبًا، واعترف بأنه

لا يصدق أن الجراحة نجحت! بنفس الأسلوب السلبي الذي أخبرني به أن آخذ ابني إلى البيت وأنتظر الموت. رأيته مصدومًا أمامي، عرفت هنا أن الله أكبر وأن الأمر كله بيده .

شعرت بقوة أكبر مني في تلك اللحظة، سمعت كل الأصوات في رأسي في نفس الوقت؛ سمعت الصوت الغاضب الذي أراد أن يضربه ويلومه على كل المشاعر السلبية التي تسبب بها قبل الجراحة، الصوت الفائز الذي يريد أيضا أن يلكمه ويضربه ويقف منتصرا على جسده وهو يصرخ: خسرت يا كئيب!! ولكن بدلًا من ذلك، وجدتني أقاطعه بحزم وهدوء قائلة : "يا ترى فيه كام عيلة سمعوا كلامك وروحوا خايفين عشان إنت قررت إن ولادهم يموتوا؟ يا ترى كام أم انهارت بعد ما كلمتك وراحت منها الحاجة الوحيدة اللي فاضلة بعد السرطان.. الأمل؟ وكام طفل كان ممكن يعيش يومين زيادة، حتى ولو احتمال بسيط، وجيت إنت سرقت الفكرة دي من أهله! لسه واقف قدامي بتحاول تسرق الفرحة القليلة اللي ربنا مَنّ بيها عليا؟ كلامك خلص وياريت تخليه لنفسك بعد كده !". وقف هناك كطفل صغير معاقب، استدار ومشى ولم أره أبدًا بعد ذلك !

بالرغم من كسرتنا وتعبنا.. بدأنا ثورة! أسميناها (The Zeinvolution) أو الثورة على طريقة زين! ثورة ضد السرطان! كنا نعلم أن مدة العلاج غير محددة، تنتهي فقط حين نطمئن أننا قضينا على الخلايا السرطانية.. ومهما سمعت وعرفت عن تاريخ مرضى السرطان الذي يلازمهم مدى حياتهم.. بات الأمل في أن نتخلص من المرض نهائيًّا قويًّا بداخلي .

بغض النظر عن مدى صعوبة توقع علاج الانتكاس، لم يكن الإعداد له بالشيء السهل أو الهين. دارت الحياة سريعا حول العلاج، عاد الإحساس الرتيب الممل الذي لا معنى له كطريقة معيشتنا! أستيقظ كل يوم ولديَّ إحساس المهمة! مهمتنا إننا "نعدي اليوم " وننهي كل يوم بطريقة إيجابية، أعددت نفسي ذهنيا لجعل هدفي قصيرًا وسهل التحقيق فلم أفكر في الغد، بل لم أستطع التفكير في الغد! لذا، سأعيش اليوم بيومه وأجعله جميلًا على قدر استطاعتي.. كنت أضع زين على مقعده في السيارة وأربطه جيدا، وأستمع إلى قائمة الموسيقى السعيدة التي أعددتها على هاتفي خصيصا، ثم أبدأ في القيادة. اخترنا بعناية كل أغنية نسمعها، ممنوع أي نغمات بطيئة أو حزينة.. لا شيء سوى أغانٍ سعيدة، تحفيزية وملهمة .

وبينما كنت أقود سيارتي لمسافة الـ 55 ميلًا المعتادة للمستشفى، اختلست النظر إلى زين لأراه يغفو قليلًا في المقعد الخلفي، شعرت بالتعب يحل على جفوني مددت يدي لأصل إلى شنطة الزيوت السحرية كما كان يسميها تامر! فكنت قد كرهت الطب والأدوية واستعضت عنه بوصفات طبيعية.. استنشقت زيت البرتقال وأفاقتني رائحته. ثم كانت لحظات قصيرة عندما سمعت صوت زين الخافت يهتف : "صفرا !" ، معلنا أنه يلعب لعبة الطريق التي اخترعها تامر وهي أن نهتف عند رؤية أي سيارة صفراء اللون كنوع من أنواع قتل الوقت في الطريق الطويل، وللتأكيد أن زين ما زال مدركًا وواعيًا ما يحدث حوله. وصلنا لجناح العلاج اليومي ووصلنا للكرسي اليومي الذي يتلقى فيه زين العلاج الكيماوي.. فتحت الحقيبة الملونة المليئة بالوجبات الصحية واللعب والألوان حتى دخلت ممرضتنا البشوشة. رحبت بها بصوت عالٍ : "أهلاااااا، إيه الأخبار عملتي إيه من ساعة ما سبناكي؟ ".

الممرضة : "كان ويك إند هايل ومريح، طلعنا البحر زي ما قلتلك وأجرنا كابينة .. كانوا يومين حلوين ومريحين جدا.. وإنتو عملتوا إيه؟ ".

أنا : "إحنا كمان الويك إند كان مريح قوي، زين مسخنش الحمد لله

ومرجعش كتير فمحتجناش نيجي الطوارئ وريحنا في البيت مخرجناش منه ".

كانت مناقشة سهلة وغير غريبة بالمرة.. فأخذ حبوب الكيماوي في البيت بدون الذهاب إلى المستشفى ومشاهدة التليفزيون في المنزل كانت بالنسبة لنا أقصى حدود الرفاهية والراحة. بدأ زين العلاج ونام على كرسيه، بينما أطفأت أنا الأنوار وبدأت أعمل وأكتب على اللاب توب كطريقتي في ممارسة الحياة طبيعيًا. انتهى اليوم وذهبنا إلى منزلنا للروتين الليلي.. لننام ونبدأ من جديد في الصباح يومًا جديدًا بنفس التفاصيل .

بدأ واقع ثقيل، كيف أصبح وجود السرطان بيننا طبيعيا بهذه السرعة؟! أصبح اليوم الروتيني الذي تدور أحداثه حول الكيماوي بدون أحداث جديدة نعمة وكل ما كنا نتمناه! ثم بدأت الخطوة الثانية من العلاج. كان السرطان عنيفا. العلاج وحده غير كافٍ، لا بد من تجربة علاجات لم تتم تجربتها من قبل على أمل أن تعمل .

أكتوبر 2014:

أمسكت الملصقات الخاصة بي وكتبت "واجب زين " على مجلد واحد، و "واجب ملك " على مجلد آخر، وبينما كنت أستعد لحزمها في حقائبنا، سمعت خطوات ملك الصغيرة وصوتها يقول : "ماما، ممكن آخد دبدوب تاني معايا؟ دول صحابي يا ماما وهيوحشوني قوي لما نسافر نيويورك !". أخذت نفسا عميقا لتذكير نفسي بكل الصدمة النفسية التي تمر بها وتركها لمتعلقاتها وأصدقائها .

أنا : "أيوة يا لوكي، خدي اللي إنتي عايزاه ". فما هو بعض الوزن الزائد للأمتعة في سبيل راحتها النفسية؟ حزمنا حقائبنا وأخذنا بعض الأشياء من المنزل كي لا نفتقده، ربطت شريطة بلون ذهبي على كل حقيبة كأي ست مصرية أصيلة.. اخترت الذهبي ليرمز إلى مكافحة سرطان الأطفال. ذهبنا إلى نيويورك وتركنا كل شيء وراءنا لمدة شهر ونصف نبحث عن علاج هناك لم يتم تجربته بعد! فبينما قررت الحياة إعطاءنا نوعًا نادرًا من السرطان، قررت أيضا إعطاءنا نوعًا نادرًا من الانتكاس بعد مرور 18 شهرًا، اختبارًا لقدرتنا على التعامل مع التغيير. أصبح الأمل أسلوب حياة، كل ما رأيته في تلك الرحلة كان فرصة لنا للتقدم خطوة أخرى نحو الشفاء، ولكن مهما حاولت.. مجرد التفكير في

ترك كل شيء وراءنا والذهاب إلى عالم مجهول تمامًا فكرة مخيفة والتكيف معها غريب .

خرجنا من مطار جون كنيدي لنبدأ مغامرة جديدة، تذكرنا شمس كاليفورنيا الدافئة ونحن نستقبل نسيم نيويورك البارد، لكنني اخترت أن أرى هواءً جديدًا يوميا وأنا أقاتل جنبًا إلى جنب مع ابني .

إن قدرة الإنسان على تحقيق التوازن بين الطاقة الإيجابية والسلبية مضحكة للغاية، ومن الممكن أن تؤدي إلى دعمه واستنزافه في آنٍ واحد. مر يوم تلو الآخر حتى قضينا شهرًا كاملًا هناك. نقضي كل دقيقة من اليوم معا، تركنا المدارس والعمل والأصدقاء والعائلة .

كل صباح تدخل أشعة الشمس البسيطة نوافذنا من خلف السحب الرمادية معلنة عن صباح جديد . أستيقظ وأذهب إلى مطبخنا الصغير وأعد الوجبات الخفيفة لليوم، أضعها في حقيبة غداء صغيرة ثم أعد عربة الأطفال ليجلس فيها زين لسهولة التنقل في شوارع نيويورك . يستيقظ زين وملك، وبعد الإفطار يذهبان إلى ركن الواجب المنزلي الصغير الذي أنشأته في شقتنا الجديدة المؤقتة، يبدآن أعمالهما الصباحية في العمل المدرسي. كان منزلنا صغيرًا لكنه منظم ومليء بالحياة .

أصبح البحث عن الحياة الطبيعية هو الأدرينالين وأسلوبي في التكيف مع الحياة في نيويورك.. وضعنا روتينا يوميا ساعدنا جميعا على التأقلم والتكيف. ولأن السير على الأقدام أفضل في نيويورك لازدحامها، فكنا كل صباح نرتدي معاطفنا الثقيلة ونمشي مسافة 3-4 كيلو مترات يوميا. لكن بمجرد خروجنا من المبنى في هذا اليوم، قال زين : "هو أنا ممكن أمشي معاكو النهاردة؟ أنا مش عايز أقعد في السترولر !".

جاءت كلماته صادمة لي ولتامر، تذكرنا فجأة كيف اعتدنا التعامل معه كطفل مريض طوال اليوم، منذ وقت الانتكاسة ثم جراحة المخ الكبرى، لكن ها هو ابننا يحاول جاهدا أن يجد نفسه مرة أخرى بعد أن تاه بداخل جسده الذي احتله وحش السرطان !

تعمدنا تجنب النظر مباشرة إلى ما هو واضح للجميع لمواصلة القتال بقوة، تجاهلنا الإرهاق المستمر، ونقص الطاقة والارتباك الذي أظهره زين بسبب الورم والعلاج، فقط ركزنا فقط على خط النهاية وحددنا الهدف في المستقبل لكي لا نضعف في الحاضر. لذا، عندما يطلب منا

أن يكون طبيعيًا ليوم واحد، أن يمشي ولا يجلس في عربة الأطفال، فمن الطبيعي أن تأتي كل هذه المشاعر متدفقة في عروقي لتذكرني بحجم ما أخفيته في أعماق نفسي وقلبي لكي لا أنهار وأستطيع الاستمرار! كان زين يعود! ربما ببطء ولكن بثبات، ونوعا ما كنا نفعل شيئا صحيحا داخل هذا الجنون المسمى برحلة السرطان. كنا نعطيه أملًا !

قد يعيش الأهل بإحساس مستمر بالذنب تجاه أبنائهم، لكن يتضخم هذا الإحساس عند أهل مريض السرطان! وتدور يوميا أسئلة من نوعية : "يا ترى شجعته كفاية النهاردة؟ يا ترى عاملته طبيعي كفاية؟ يا ترى ساعدته يعبر عن مشاعره من غير ما يغرق في الوجع والاكتئاب والزهق؟ ". فطبيعي عندما فاجأنا زين بسؤال بسيط لكنه يحمل الكثير من المعاني أن يكون ردنا هو . "أيوة طبعا يا حبيبي.. امشي! عرفنا بس لو تعبت عشان تقعد، ماشي؟ ".

تبادلنا النظرات الصامتة المبتسمة أنا وتامر وبدأت مسيرتنا في رؤيته أمامنا يتخذ خطوات ثابتة بطيئة ويضغط على نفسه لعدم طلب عربة الأطفال إلى أن وصلنا إلى المستشفى، كانت مسافة 3 كيلو مترات في نيويورك ليست بالكثيرة في العادي، ولكن بالنسبة لزين كانت عملًا شاقًا! وبالرغم من هذا فقد حافظ على ابتسامته الكبيرة طول الطريق حتى وصلنا إلى المستشفى، وبينما نحن في غرفة الانتظار، نادت عليه ملك : "يلا يا زين تعالى العب معايا في أودة اللعب لحد ما ييجي دورك ". نظرت إلى جسده النحيل وهو يسير نحو الغرفة وابتسمت. فقد افتقدت بيتي، تعبت من العلاج، استُنْزفت من المستشفى، دفعت نفسي إلى البقاء قوية كل يوم. وكانت رؤيته وهو يمشي بمفرده أملًا كنت بحاجة إليه في ذلك اليوم. جلست أنظر إلى تليفوني عندما جاءت ذكرى على الفيس بوك منذ سنة ماضية "ممكن متبقاش دي أجمل أيام حياتنا.. بس دايما في حاجة حلوة في كل يوم بنعيشه ".

نوفمبر 2014:

بدت ناطحات السحاب أصغر من نوافذ الطائرة الصغيرة، وبدأ الشعور بالارتياح والطمأنينة يجد طريقه إلى قلبي ونحن نقترب من البيت! شكرًا نيويورك، لقد كنت لطيفة معنا في رحلة ليست لطيفة، إلى اللقاء. جلست أقرأ القرآن الكريم، (ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ)، فهو يأتي جنبًا إلى جنب

بطريقة تعطيك الأمل عندما تشعر بالضياع .

استقبلتنا شمس كاليفورنيا الدافئة بترحاب بعد أن ابتعدنا عنها لمدة شهر، وصلنا منزلنا وأفرغنا حقائبنا وارتميت أنا وتامر على الكنبة في آخر اليوم ننظر إلى السقف بلا أي كلام ثم سمعت تامر يقول وهو يضحك بشدة : "هو حصل إيه؟ ".

أنا : "أنا عارفة؟ كإن حد حطنا في خلاط وداس تربو.. إيه ده اللي كنا فيه؟ ربنا ما يحرم حد من بيته يا أخي ".

كانت الصعوبة تكمن في محاولتنا لنكون إيجابيين وأقوياء في نفس الوقت، فطاقتنا كانت تستنفد بسهولة في حرب مع عدو بعنف وقوة السرطان.. كنا نخطط ونتعامل مع التغيير في الخطة.. ولكن بالرغم من كل هذا كانت للحياة خطة أخرى .

ديسمبر 2014:

دكتورة M: "دلوقتي إحنا محتاجين نركز في الطريقة اللي حيعيش بيها مش حيعيش قد إيه، الأعراض الجانبية عنيفة وكويس إننا لحقناها بدري بس عشان العلاج لسه جديد مش حنعرف إيه اللي سبب ده.. أنا رأيي نوقف العلاج ".

صمت رهيب تخلله صوت الجراح دكتور K: "إحنا اتصرفنا بسرعة عشان ننقذ حياته.. العملية الأخيرة كانت رابع عملية في المخ في ست شهور.. الجهاز اللي أنا حطيته حيساعد على تفريغ السوائل الزيادة في المخ، بس ده حيفضل في راسه.. الجهاز ده مش حيتشال من مخه طول ما هو عايش ".

جلسنا في حالة ذهول نحاول أن نستوعب ما حدث، فقد أخذنا السرطان على غفلة وبدون سابق إنذار مرة أخرى كانت هذه العملية الرابعة في المخ في ستة أشهر والثانية في أسبوع واحد. عدنا من نيويورك من شهر واحد، وكانت التقلبات مع العلاج سريعة وغير متوقعة بالمرة. وبينما نحن جالسان ننظر إلى زين مستلقيًا على السرير ونحن نتعامل مع الموت وكأنه ظل لا يبعد وجزء لا يتجزأ من حديثنا.. دخلت دكتورة M مرة أخرى قائلة : "أنا عارفة إني غالبا كنت المفروض أقولكوا ده الأول.. بس التحاليل الأخيرة بينت إن السرطان اختفى من جسمه والعملية مع العلاج قضوا على الورم، أنا حسيبكوا تريحوا

ونتكلم كمان يومين ".

قالتها وذهبت بكل سهولة! في أقل من شهر وبينما ظننا أننا نرتاح ما بين رحلات العلاج.. قررت الحياة أن تعطينا اختبارًا آخر.. اختبارًا كله كلمات صعبة مثل جلطة مخ، غيبوبة، آلام مبرحة وقرارات سريعة وعمليات مخ جراحية في الفجر لإنقاذ حياة ابننا.. اختبارًا صعوبته كانت حول مدى عنف العلاج وآثاره الجانبية.. وبينما نحن غارقان في كل هذا نكتشف أن عدونا اللدود اختفى! قضينا على السرطان ولكنه قضى علينا معه! جاء العلاج بسعر باهظ. وهو جودة حياة ابننا .

جلست في الليل أقرأ قرآني بقلب ثقيل جدًا وعينين بالكاد مفتوحتين، وصلت إلى الآية المفضلة لديّ (ۈ ۇٌ ۋ ۋ) ليس بعد، ولكن مع! مضحكة جدًا هذه الحياة، كل شيء يأتي يدًا بيد، ولكننا نميل إلى التركيز فقط على الأشياء الصعبة والسلبيات، فمن الطبيعي أن يكون شيء مثل توديع ابني لما بدا أنه آخر مرة من أكثر الأشياء المؤلمة. ومع ذلك، وفي أعمق وأحلك اللحظات يأتي خبر مثل القضاء على السرطان للمرة الثانية لرفع معنوياتنا ويعطينا نوعا من الأمل .

سمعت الأصوات في رأسي : "طيب ماشي.. حنوقف العلاج! إيه يعني؟ ما خبطنا في حيط قبل كدة وربنا عدانا.. معندكيش حاجة

يا رضوى فاضلة غير ربنا والأمل... حتخسريهم يا حلوة تبقي رحتي في داهية.. نختار حياته، نوقف العلاج.. إيه يعني؟ مش حنبطل دعا.. مش حنبطل دعا ".

وطني في قلبي

"إن مجدنا وقوتنا لا يكمنان في عدم السقوط،

ولكن في قدرتنا على الصعود كل مرة نسقط فيها ".

كونفوشيوس

يقولون إن اليوم الحاضر هدية يجب أن نحافظ عليها ونستمتع بها، فكان كل يوم في منزلنا بدون أي مفاجآت صحية أو زيارات مفاجئة للمستشفى هو أكبر هدية ونعمة. كلما سُئلنا : "عاملين إيه؟ " كانت إجابتنا موحدة : "الحمد لله منقدرش نشتكي ".. وقد كان في استطاعتنا الشكوى، لكننا لم نخترها. فما الفرق الذي ستحدثه شكوانا؟ لا شيء إلا إنها ستأخذ من البركات التي يمنحها لنا الله كل يوم، من اللحظة التي نعيش فيها الآن، من راحتنا.. لذا عشنا كل يوم على حدة .. ورأينا زين يتحسن ببطء، رأيناه يكافح ورأينا عينيه مرتبكتين، لكنهما مليئتان بالتفاؤل والرغبة في الحياة. كنا متعبين ولكننا نقف بقوة .

أبريل 2015:

تامر : "إنتي محتاجة تسافري! روحي شوفي أهلك صحابك وارجعي رضوى الفرفوشة كده. خديلك جرعة حب وتعالي ".

أنا : "عندك حق جدا بس أنا خايفة أمشي يرجع السرطان تاني، زي المرة اللي فاتت ".

تامر : "وممكن ميرجعش ".

أنا : "يبقى على الأقل أنا هنا وأعرف أتصرف !".

تامر : "آه ومكتئبة وجايبة أخرك كمان؟! ولو مرجعش؟ ".

أنا : "معرفش بقا ساعتها أتصرف !".

تامر : "بالظبط كدة! فكري بالعقل كدة !".

في حين تلملم الفتاة الصغيرة بداخلي حقائبها وهي في قمة السعادة، وشعرت الفتاة المراهقة بداخلي بمتعة السفر وحدها، كانت الأم بداخلي في قمة الخوف! أكبر مشكلة تواجه الأم هي عدم السيطرة على التفاصيل اليومية للحياة !

اختلطت وتجمعت كل المشاعر بداخلي وأنا في طريقي إلى المطار متجهة إلى مصر، وتذكرت وأنا على متن الطائرة كيف كنت متحمسة وأنا مسافرة بمفردي منذ عام واحد . فدعوت بشدة ألا تنتهي هذه الرحلة بنفس الطريقة التي انتهت بها سابقتها! بدأت أشعر بالدم يتدفق في عروقي مرة أخرى كلما اقترب العد التنازلي للهبوط، كنت أتنفس بشكل أسرع ولكن بشكل أسهل، كنت قلقة لكن في نفس الوقت بداخلي سلام رهيب، فقد تركت جزءا مني في وطني وها أنا أعود إليه.. كان المكان والوطن لم يتغيرا بينما تغير كل شيء فيّ! لم أكن نفس الشخص الذي كنت عليه قبل آخر مرة غادرت فيها، لست نفس الابنة أو الصديقة أو الأم .. إنني مختلفة .. بشكل جيد .

استرجعت ذاكرتي ألوان الشوارع والتفاصيل المحيطة بها، شعرت بمشاعر حب وفرحة واطمئنان وسلام تجري في عروقي .. كان لذاكرتي فعل السحر لتعيدني إلى نفس الإحساس الذي تركته منذ أعوام .. ربما أنا تغيرت .. ولكن يظل إحساس الدفء بالوطن واحدا! ظللت أنظر إلى الوجوه السمراء حولي .. كل هذه الوجوه تحمل قصصا، ولكني أتطلع إليها الآن بشكل مختلف. أتساءل عما يرونه، أتساءل ماذا يفعلون، أتساءل عن قصصهم. اختلط فضولي بإحساس بالمسئولية، لقد اخترت -عندما بدأ هذا الجزء من قصتي-الحياة بهدف وإحداث فرق. فكانت تجربة مثل تجربتي لا يمكن أن تمر مرور الكرام، ولكن يجب أن تمهد السبيل لتغيير أفضل، هدف أكبر .. أليس هذا هو هدفنا في الحياة؟ كلنا نبحث عن الهدف الذي من خلاله نستطيع إحداث فرق؟ إن فكرة تحويل كل شيء سلبي إلى إيجابي كان قرارا أكبر مني .. لم تعد طريقة تفكير فقط ولكن أسلوب حياة .

نظرت إلى الشوارع المألوفة من نافذة السيارة وأنا أفكر في الشخص الوحيد الذي أردت مشاركته أفكاري، والغضغضة معه عن أسلوب حياتي الجديد والتغيير الذي شملني كلي .

تأرجحت السيارة ببطء على الطريق غير الممهد وبدت المباني الصغيرة مألوفة، شعرت أني أقترب من وجهتي .. وبالرغم من الصمت

الحزين والهدوء اللذين عمَّا المكان لكن شعرت بالراحة تتسرب إلى قلبي .. لم يكن هذا المكان مجرد (مقابر لدفن الموتى) بالنسبة لي .. ولكنه منزل ووطن أمي الجديد! أوقفت السيارة وسرت ببطء، عبرت الباب الحديدي المزدوج. الزرع والزهور أعطوا إحساسًا بالطمأنينة والجمال. كانت مقبرة عائلتي دائما نظيفة وهادئة .

هناك .. في الزاوية اليسرى ترقد أمي. وكنت متحمسة جدا ولم أستطع الانتظار لأخبرها بكل شيء! هدأت الأصوات في رأسي فجأة. كانت المرأة البالغة "العاقلة الراسية " في داخلي هادئة من باب احترام المكان، وكانت الفتاة الصغيرة في داخلي تقف منتظرة بفارغ الصبر وقتها مع أمها. مرت دقائق قليلة وبعد قراءة بعض الآيات من القرآن والدعاء لموتانا جميعا .. مشيت أقرب قليلا إلى المكان حيث دفنت ووقفت هناك في هدوء لالتقاط الأنفاس .

كفتاة صغيرة، كنت دائمًا أحلم هذا الحلم غير الواقعي، وهو أني سأعود إلى البيت يوما، وستجلس عائلتي ليبلغوني بأن كل هذه السنوات لم تمت أمي، وأنها كانت على قيد الحياة فعلًا ولكنها تعاني من فقدان الذاكرة! وأن حادث السيارة لم يؤد إلى موتها والحبكة الدرامية جعلتها تختفي لكنها الآن عادت! حلم درامي.. وغير واقعي بالمرة! وقفت هناك أغمض عيني وأفكر في مدى اختلاف عالمي وماذا كان سيحدث لو أصبح هذا الحلم غير الواقعي حقيقة !

ماذا لو كنت واقفة هنا الآن، كامرأة تبلغ من العمر 32 عامًا كبرت وأم وطفلين .. أحدهما متعافى من السرطان مرتين، ماذا لو جاءت أمي من خلفي لتفاجئني؟! ماذا لو كانت كل هذه السنين تحاول أن تتعافى وتجدني وتعوضني عن الوقت الذي خسرناه؟ ! كان خيالي بلا حدود رسم لي صورة واضحة بتفاصيلها عن كيف شكل أمي بكبر السن، عن صوتها وملابسها، والقصص التي كانت ستحكيها عن السنوات التي قضتها بعيدة عنا، وأكثر من ذلك بكثير. وجدت الفتاة الصغيرة في داخلي دائمًا ارتياحًا في ذلك الخيال الصغير أني ربما لن أكون في يوم من الأيام يتيمة الأم. أخذت نفسا عميقا وسعدت بهذا التخيل غير الواقعي، فتحت عيني لأقرأ لها بصوت خفيض ما كتبته.. كان يبدو شيئا غير منطقي أن أتكلم إلى حجر بصوت بدلا من محادثتها في عقلي .. ولكن عدم وجود أمي فعليا لم يعن لي شيئا! احتياجي لمحادثتها كان سرنا الصغير، الذي لم يتغير مهما كبرت. اقتربت خطوة منها : "هاي ماما.. إزيك؟ وحشتيني قوي! وحشتيني بجد! انسي بقا كان نفسي

تكوني هنا وأنا بتجوز وبخلف والكلام ده! فيه حاجة أكبر حصلت. الدنيا اتشقلبت الكام سنة اللي فاتوا .. كان نفسي تبقي هنا وأقولك بنفسي إني كسبت يا ماما .. كسبت أكبر معركة في حياتي! وقفت جنب ابني وكسبت السرطان مرتين! اتكسرت .. بس متخافيش.. حتصلح، حبقى أقوى! أنا حاسة إني أقوى .. وكان نفسي تبقي هنا واحضنك جامد وأوريكي .. بس خلاص مش حدوشك أكتر من كده .. وافضلي ادعيلي من الجنة.. بحبك يا أغلى الناس ".

أبريل 2016:

سنة كاملة مرت منذ أن ذهبت إلى مصر، منذ أن تعافى زين للمرة الثانية من السرطان . 365 يومًا أعطت معنى مختلفًا تمامًا لمفهوم الوقت والصعود بعد السقوط بدأت الحياة تغرس نوعًا مختلفًا من الهواء للتنفس .. متعب ومنهك أحيانا .. ولكنه أكثر تقديرًا لجميع الهدايا والبركات التي يمنحها لنا الله يوميًا. بعد معركتين مع السرطان، والعديد من العمليات الجراحية بعد إصابة زين بجلطة في المخ وشلل نصفي .. أصبحت الأشياء الصغيرة مثل القدرة على حمل كوب أو القيام من الأريكة وحده تمثل لنا انتصارات كبيرة ! كانت عضلاته حرفيا تتحرك، عضلة واحدة في كل مرة من خلال العلاج الطبيعي المستمر والتمارين اليومية في المنزل. رأيناه يتقدم -يأخذ خطوات بطيئة ولكن يتقدم بثبات-نحو طفولته مرة أخرى كان عاما كاملا من التعافي والنقاهة لنا كلنا! النقاهة من إحدى كبرى الصدمات التي يمكن لأي عائلة أن تمر بها معًا. وسنة بعد سنة .. مر الوقت ليثبت لنا أنه أحسن طبيب .

"اخلص بقا! بقالك ساعة بتقلب في القنوات وتلعب بالريموت! حنتفرج على إيه؟ ". لم يعد صوت ملك صغيرا ورفيعا ولكنه نضج وامتلك القدرة على إبداء اعتراضه. نظر إليها زين بطرف عينيه وهو مستمتع بإغاظتها : "اهدي يا ملك .. هو انتي علطول متعصبة كدة؟ ". اتكأت على مخدتي وأنا مستمتعة بمشهد الجدال اليومي وتدخلت قائلة : "وطوا صوتكوا! أنا لسة منيمة آية .. لو صحيتوها إنتو اللي حتلبسوا !". جاء تامر على الكنبة ليعلن بداية ليلة الأفلام الأسبوعية، قرر اختيار الفيلم، أطفأ الأنوار وبدأت أصوات أكل الفشار تختلط مع أصوات الفيلم. لم أستطع متابعة الفيلم وأنا أحمل صغيرتنا آية على ذراعي .. فقد نسيت كيف تستنزف هذه المخلوقات الصغيرة طاقة رهيبة .. ولكني استمتعت بالمشهد من مكاني.. رأيت عالمي كله في غرفة واحدة ..

زين بطلي المتعافي مرتين من السرطان على الأريكة مستمتع بفيلم مع عائلته في منزله بعد أن تكلم مبكرا في جمع كبير وحشد من الناس عن أهمية مقاومة السرطان. رأيت ملك آنسة صغيرة قوية وواثقة في نفسها.. كبرت لتكون فردا أساسيا في حياتنا وعائلتنا تنشر الحب والضحكة للجميع. رأيت تامر في وضع جسدي مستريح بالرغم من تأكدي أن عقله لا يتوقف عن التفكير في كل واحد منا. وأخيرا نظرت إلى آية نائمة بهدوء على ذراعي معلنة بدء حياة جديدة في حياتنا .. آية من الله أن مع العسر يسرا وعلامة عن السعادة التي طالما اشتقنا إليها .

كان عام 2017 على وشك البداية، وبالرغم من نظرة العالم للعام الجديد كبداية جديدة! كان كل يوم بالنسبة لنا هو بداية جديدة. تعلمنا أنه لا يوجد حد زمني للسعادة، لا يوجد حد زمني لبدء شيء ما أو تعديله. لقد سُرقت منا لحظات كثيرة، تعويضنا لها لم يكن فقط من خلال خلق لحظات أخرى جديدة وسعيدة، ولكن من خلال إحساس الحياة بكل لحظة تعطيها لنا الدنيا .. من خلال عدم سماحنا لخوفنا من الغد أو شبح كلمة "ماذا لو " أن يسرق منا فرحة ونعمة اليوم .

البداية

"أحب رؤية الجانب المشرق من الحياة،

لكنني واقعي أيضًا لأعرف أنها معقدة "

والت ديزني

أغسطس 2017:

رنت ساعة المنبه تعلن عن بداية يوم جديد، استيقظت على نسيم الصباح الباكر يتسلل من نافذة غرفة نومي.. وتوجهت نحو غرفة الأطفال لإيقاظهم، ووقفت هناك أتابع زين وهو يجرّ قدميه نصف نائم ليغسل وجهه .. لم أستطع أن أصدق! كان يومه الأول في عامه الأخير في مدرسته الابتدائية، وهي نفس المدرسة التي تم تشخيص حالته فيها للمرة الأولى كمريض سرطان في المرحلة الرابعة في عامه الدراسي الأول في الحضانة. مرت أربع سنوات ونصف، وست سنوات أكاديمية ليستيقظ زين اليوم ويجسد إحدى معجزات الله على الأرض مرة أخرى .

بدأت "الدوشة " الصباحية المعتادة لدخول المدارس، وبعد ساعة كنا جميعًا في السيارة نستعد لبدء عام دراسي جديد، نحيي جميع أصدقائنا ونبدأ روتين حياة طبيعية مرة أخرى. شعرت بابتسامة كبيرة تغمر قلبي وتملأني وأنا أسير في الطريق الجانبي المشمس أشاهد جميع الآباء والأمهات السعداء وهم يمشون إلى المدرسة، كان التلاميذ جميعهم أولاد وبنات سعداء بملابسهم الجديدة، وقصات وتسريحات شعرهم النظيفة. لم يكن اليوم مجرد بداية عام دراسي جديد بالنسبة لي ولعائلتي، ولكنه كان بداية جديدة بشكل عام .. بداية حياة جديدة، حياة نعيش فيها ونستمتع بكل لحظة الآن. حياة لم يختف فيها خوفي من الغد .. ولكن لم يُسمح له بالسيطرة علي أو التحكم في اليوم. حياة سأستمتع فيها بكل التفاصيل المعطاة لي: كل يوم، كل لون، كل نسيم، كل ابتسامة، كل لحظة، وكل نفس .

وقفت هناك أنظر إلى زين، وهو يسير نحومدرسته بسعادة ممزوجة بالفخر، وهو يسحب حقيبته المدرسية الجديدة خلفه ويبتسم إلى الجميع متحمسًا جدا لمقابلتهم مرة أخرى بعد العطلة الصيفية. لم يكن

بإمكانه الانتظار لإخبارهم عن عطلته الصيفية ولكن فرحته الأكبر كانت لأنه ينتمي إلى كبار المدرسة الآن ، فكل التلاميذ أصبحوا أصغر منه .

مرت الأيام وأنا منغمسة في حياة الأم "الطبيعية ".. كانت الخناقات اليومية على الغسيل أو الواجب المدرسي ممتعة جدا بالنسبة لي .. فبالرغم من إرهاق مجهود الأطفال الثلاثة.. لكنه كان لا يضاهي مجهود الأمومة خلال رحلة السرطان .

وبعد بضعة أسابيع أخرى من العام الدراسي، حان الوقت للتوجه إلى المستشفى لإجراء الفحوصات الدورية، فقد مرت ثلاث سنوات منذ أن تعافى زين.. ومن المعروف أن كلما اقتربنا لل- 5سنوات زادت فرصة الشفاء التام وعدم عودة السرطان مرة أخرى.. انتهى أول يوم وعدنا إلى منزلنا لنستريح ونستعد لليوم الآخر. كانت الساعة السابعة مساءً عندما رن هاتفي برقم دكتورة M لأشعر بقلبي ينتفض ويدق بسرعة .

فهي لا تتصل بي شخصيا إلا إذا كان هناك شيء خطير! نظرت إلى شاشة هاتفي ودخل عقلي تلقائيًا في مرحلة إنكار تام. أخذت نفسا عميقا، وقبل أن أسمع أي شيء، عرفت أنه حان ميعاد اختبار آخر من الله؛ جاء في شكل كلمات بطيئة : "آسفة يا رضوى.. بس تحاليل النهاردة قالت حاجة جديدة ". بعد ثلاث سنوات من التعافي، بعد تذوق جمال الإجهاد اليومي الطبيعي بعيدا عن عالم السرطان، بعد العودة إلى "الوضع الطبيعي الجديد ".. لقد كان مقدر لنا أن نقاتل مرة أخرى .

أعلن سرطان زين الثالث نفسه بطريقة خادعة تظهر في شكل ورم صغير داخل كليته، تاركا الجميع يتساءلون عما يمكن أن يكون؟ وفي غمضة عين تغير عالمنا مجددًا! سرطان مزعج رقم ثلاثة، وطفل أصبح الآن أكبر سنا وقادرا على السؤال، وأختان كلتاهما تحتاج إلى نوع خاص من الرعاية والحب، إحداهما رأت معنا الكثير، والأخرى ليس لديها أي فكرة أننا عشنا تلك الحياة من قبل. جلست على سريري في انتظار تامر منبهرة بمدى قوة هذا الإحساس الذي ينفذ في عمودي الفقري من الألم والوخز! كيف يمكن لذاكرة جسدي أن تعود سريعا لأحاسيسها ومشاعرها التي طالما تناستها في ظل الحياة الطبيعية الأعوام الماضية.. ظننت أنني نسيت .. ولكن أثبت لي عقلي أني مخطئة . لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لكل منا أن ننهار سويا، فبالرغم من قولنا دائما عدة مرات كيف يجب أن نكون مستعدين دائمًا، وكيف لن نشعر بالصدمة إذا عاد السرطان مرة أخرى.. لكننا بشر! مرت نفوسنا

بالكثير .. وجاءت الصدمة لتكسرنا .. قمنا ببطء نلملم قلوبنا المكسورة ونظرنا إلى بعض وخلف لمعة عيوننا الحزينة.. عرفنا أنه ليس لدينا خيار، سنذهب للحرب.. مرة أخرى !

سبتمبر 2017:

مهما مرت السنون وزاد عدد العمليات الجراحية التي مر بها زين والتي وصلت لـ 45 عملية.. لكني ما زلت أكره بشدة هذه القاعات الضيقة البيضاء الطويلة الممزوجة برائحة الكحول المطهر، رفضت أن أعتاد عليها أو أتاقلم معها! ودعنا زين مرة أخرى ورأيناه نائما يختفي من وراء هذه الأبواب الكبيرة على سرير المستشفى وجلسنا في انتظاره حتى عاد في غرفة الإفاقة يختار النوم والهروب من الواقع الذي نساه لثلاث سنوات. وجلسنا نحن نسمع أخبار العملية من الجراح .

تامر : "إنت متأكد إنه مش محتاج كلية تانية؟ إحنا جاهزين.. شفنا إحنا وخد منا اللي إنت عايزه ".

دكتور S: :أيوة متأكد.. الجزء اللي اتشال من كليته مش حيأثر عليها.. الناس ممكن تعيش بنص كلية أصلا. نتكلم في الموضوع ده لو السرطان رجع ".

تامر : "لو السرطان رجع؟ !".

دكتور S: "كل شيء جايز.. إحنا عمرنا ما شفنا نوع السرطان ده في طفل.. زين بيختبرنا كل مرة بحاجة جديدة. النوع ده نوع سرطان كبار جه لزين نتيجة الكيماوي والإشعاع اللي اخده لعلاج السرطان الأولاني، نتمنى إنه ميرجعش بس لازم نبقى مستعدين ".

شعرت بإحساس جارف بالخيانة في تلك الليلة، كنت جالسة بجانب زين أنظر إليه على فراش المستشفى بعد أن غادر تامر وسمعت كل الأصوات في رأسي مرة أخرى . "ماشي ماشي يعني نصبر ونستحمل كل ده عشان يشفى من نوع سرطان.. فيجيله نوع تاني من علاج الأولاني؟ نفضل جامدين وماسكين نفسنا ومصبرين نفسنا وفي الآخر نقعد القعدة دي تاني؟ نعمل إيه طيب عشان منجيش هنا تاني؟ إيه اللي ممكن نعمله مختلف عشان منقفش الوقفة دي تاني؟ ولا حاجة! ولا أي حاجة !".

"إففف.. أنا بكره المستشفى دي بشكل ".. قلتها بصوت عالٍ، ونبهت نفسي أن بالرغم من أن زين يبدو نائما ولكن ممكن أن يسمعني! كرهت بعدي عن زوجي وبناتي وتفرقتنا مرة أخرى! كرهت رؤية زين هكذا، لكن إن تعلمت أي شيء منه فهو أن الله دائما وأبدا يرينا قدرته في أسلوب زين الرائع للتعامل مع الصعاب .. سأقلد ابني وأنام الآن! سأنام لأنسى هذا اليوم فربما غدًا أفضل .

عدنا إلى منزلنا بعد بضعة أيام لنواجه حقيقة واضحة وهي اضطراب ما بعد الصدمة. وجد الاكتئاب طريقه لنا أكثر من الأطفال لتمتعهم بالمرونة في التعامل مع الأحداث المؤلمة، خاصة إذا كان الكبار من حولهم يبقونهم سعداء. وكالعادة، اخترنا قول الحقيقة

ولا شيء غير الحقيقة، رأينا زين يتعافى من الجراحة، وشكرنا الله أن هذا السرطان الثالث قد تم استئصاله جراحيًا دون الحاجة إلى العلاج. استسلمت لإحساس الإرهاق القاتل وعدم القدرة على المقاومة، وأنا بداخلي بركان غضب مدرك أن ما تحملته فوق طاقة البشر ولا يوجد كتالوج أو أسلوب صحي ليتعامل معه غير إخراجه بالكامل.. كان كل يوم يقترب من نهاية عام 2017 يعتبر يومًا آخر لنقف على أقدامنا مرة أخرى. وظل صوت قوي في رأسي يزعجني : "عيطي، انكسري، طلعي اللي جواكي.. عادي إنك تبقي كويسة أسبوع، وزفت أسبوعين ".

ولم أستطع أن أتجنب هذا الصوت بالعكس استخدمته كقوة، فالعبرة في النهاية ليست بعدد المرات التي نقع فيها، إنما هي عدد المرات التي يمكننا فيها الوقوف مرة أخرى .

مارس 2018:

مرت الأيام والأحداث، وببطئ وضعنا قدما أمام الأخرى، خطوات صغيرة وبسيطة.. وجدت قلوبنا طريقها للأمل وعدم الاستسلام مرة أخرى. ربما لم يكن الوقت أفضل طبيب هذه المرة لعنف الصدمة وقوتها، ولكنه ساعد في تخفيف الألم على قلوبنا ونفوسنا .

كانت الشمس سعيدة ومضيئة أكثر من أي يوم مضى.. تجمعنا في صباح هذا اليوم الباكر سعداء مبتسمين مرتدين تيشرتات زرقاء مبهجة – لون زين المفضل-مكتوب عليها (فريق زين).. كنا مجموعة كبيرة تتقابل وتزيد سنويا للماراثون السنوي ضد سرطان الأطفال.. نتجمع

لنسمع زين يحكي قصته ويفرح بالناس حوله. نمشي جميعا وحدة واحدة لنشر الوعي وجمع التبرعات لسرطان الأطفال.. وكل عام فريق زين يزيد ويكبر.. وهذا العام مختلف.. فها هو زين متعافى ثلاث مرات من المرض اللعين ويحكي بفخر عند خط النهاية أن غدا ميعاد التحاليل الدورية بعد ستة أشهر من عمليته الأخيرة لاستئصال جزء من كليته. وقفنا وعيوننا تلمع بدموعنا الفخورة ببطلنا الصغير الذي وقف يحث الناس على التمسك بالأمل وعدم الاستسلام مهما صعب الأمر، ولكن ظلت التفاصيل الرتيبة تتكرر حتى أصبحت النكتة مملة.. (بشكل نوعا ما مضحك).

أبريل 2018:

لم يمض وقت طويل منذ جلسنا نسمع أكثر الأخبار المدمرة على الإطلاق، علمنا بأن زين أصيب بنوع جديد من السرطان. كان عزاؤنا هو أنه في عالم السرطان كان سرطانًا سهلًا ثانويًا يمكن استئصاله جراحيًا دون الحاجة إلى العلاج. ومع ذلك، كانت تدابير الله مختلفة لنا .

كان الأمر كما لو أن الله يعدّنا لمعركة أكبر. جلسنا في تلك الغرفة القبيحة ننتظر دكتورة M مع نتائج المسح الذري، سمعت صوتين مختلفين خلف الباب المغلق معها. كان أحدهما صوت الإخصائية الاجتماعية، التي يعني وجودها أن هناك أخبارًا سيئة تستلزم إبعاد الأطفال حتى يتمكنوا من التحدث إلينا بشكل خاص. خرج زين وملك وآية مشتتين بالألعاب، بينما كان الكبار في الغرفة يتبادلون النظرات القلقة بصبر نافد .

كانت عيناي مفتوحتين على مصراعيهما، وخلايا مخي نشطة، وكانت أذناي شديدتي الانتباه.. لم أكن مستعدة ذهنيًا لسماع ما هو قادم، لكنني عرفت أنني مضطرة إلى ذلك. جلست بنظرة معينة على وجهها، واقتربت بكرسيها وتحدثت عن الحقيقة القبيحة .

دكتورة M: "أنا لازم أكون صريحة معاكو.. إحنا مش فاهمين ده حصل إزاي! النوع ده نوع تاني! بيجي للكبار بس.. عمرنا ما شفناه في حالة زين .. إحنا كنا فاكرين إننا سيطرنا عليه لما شلنا الورم وجزء من الكلية من ست شهور، خصوصا إن التحاليل اللي فاتت كانت نضيفة. إنما للأسف الورم أذكى منا.. لقى طريقة واتسرب من الكلية واتكوّن تاني بحجم كبير ومتشعب.. هو زين مشتكاش من أي وجع أو حاجة مؤخرا؟

."

حركت رأسي بعلامة "لا " وسط دموعي المنهمرة الصامتة .

دكتورة M: "مش عارفة إزاي! ده الورم كبير وقاعد على المثانة. هدفي إني أخليه يتعافى تاني بس لسه معرفش إزاي ومعنديش خطة .. النوع ده (Renal Cell Carcinoma) ومبيستجبش للكيماوي أو الإشعاع والطريقة الوحيدة هي عملية بس العملية خطيرة وحتأثر عليه .. ولو قدرنا نشيله يمكن نقدر بعد كده نلاقي علاج جديد يوقف نموه مثلا. أنا لازم أكون صريحة معاكو.. النوع ده غالبا بينتشر بسرعة ودايما يفاجئنا. المرضى بيكون قدامهم سنة أو يمكن سنتين على الأكتر.. معلش أنا كان لازم أقولكوا الكلام ده عشان نكون كلنا واضحين ومتفقين ".

ارتفع صوت الصمت، وانهمرت الدموع كالمطر، وبدا الهواء ثقيلًا فجأة. كان العثور على الأمل مستحيلا ! لم نجد بداخلنا أي طاقة للبحث عن القوة أو الإيجابية .. جاء كلامها ليحطمنا.. ليعلن لنا أن الموت يقترب مرة أخرى. جففت دموعي بسرعة! لحظاتي مع زين قد قُدرت مرة أخرى أن تكون قصيرة، ولم يكن لدينا خطة بعد. أردت أن أخرج سريعا، فالجلوس والبكاء لن يغيرا شيئا! كل ما أردته في هذه اللحظة أن آخذ أطفالي وأرحل، بينما وقف تامر يحاول أن يلملم حطام ما تركته كلماتها .

خرجنا جميعا ما عدا تامر فقد عاد إلى دكتورة M قائلا بأنفاس مخنوقة، ودموعه تخونه وقوته تختفي : "أنا مليش دعوة خطتك إيه.. زين حيتخرج كمان شهر واحد من المدرسة، يوم اشتغل وحلم بيه من ساعة ما دخل المدرسة والزفت ده مسك في جسمه. على جثتي إني أسمح للسرطان يسرق اليوم ده منه.. اعملي اللي تعمليه.. متاخديش اليوم ده منه .. متسرقيش اليوم ده مننا ".

صمتت الطبيبة وتكلمت الإنسانة من وراء دموعها تحاول البقاء قوية : "أوعدك إني حعمل كل حاجة في وسعي ". قالتها ومشت.. ورأيت كتفيها منحنيتين أكثر.. تبا لك أيها المرض اللعين! فقد كسرت كل الحواجز وكل المشاعر .

مايو 2018:

يقال إنه عندما يكون المرء تحت ضغط كبير، فإنه يتصرف مثل الزومبي. يمشي ويتكلم ولكن دون إدراك حقيقي للحظة. لم يكن خيارا اخترناه بل طريقة للعيش والنجاة! كان لدينا 4 أسابيع متبقية في السنة الدراسية وأردنا أن نحب ونستمتع بكل لحظة. فها هو يكبر ليصبح شابًا لامعًا، ولم تكن حفلة تخرجه مجرد تخرج في المدرسة الابتدائية، ولكنه يخرج من حياة بدأ فيها سنوات دراسته بالتشخيص العنيف للمرض. رن هاتفي وأنا أقترب من المدرسة في ساعة مبكرة من الفجر. جاءني الصوت الذي يجلب دائما السلام والاستقرار في حياتي.. صوت أبي .

أبي : "النهاردة اليوم الكبير مش كده؟ ".

أنا : "أيوة كان نفسي قوي تكون معانا ".

أبي : "إنت حتمثلي.. هو إنت فاضيالي؟ ده أنا مش عارف أتلم عليكي عالتليفون بقالي تلات أسابيع ".

أنا : "حقك عليا والله معرفش اليوم بيبدأ إمتى ويخلص إمتى.. أنا وتامر سايبين اللي قدامنا وورانا. ومع الولاد في المدرسة، كل يوم في حفلة ورحلة وأي حاجة بيعملوها.. إنت مصدق إن زين بيخلص وداخل إعدادي؟ ".

أبي : "أنا قلت لك يا رضوى.. إنت لسه مشفتيش كرم ومعجزات.. زين ده ملاك هنا في الأرض. خلي عندك إيمان إن كله حيعدي ".

أنا : "صعبان عليا قوي إن كل صحابه فرحانين بأجازة الصيف كمان يومين وهو داخل أودة العمليات .. والمرة دي يا بابا بيجهزونا لأسوأ حاجة في الدنيا !".

سكت أبي وسمعت القلق في صمته الذي يحاول به أن يظل قويا ليمدني أنا بالقوة : "سيبيها على الله.. متعرفيش الخير فين ".

أنا : "صح والنهاردة يوم كبير.. النهاردة أفرح وأبقى أقلق بكرة ".

أبي : "متنسيش تبعتيلي صور وفيديوهات.. عيشيني معاكي ".

سار الطلاب واحدا تلو الآخر وموسيقى التخرج الجميلة في الخلفية..

وقف الأهل والأقارب يلتقطون الصور بكاميراتهم الخاصة. العيال كبرت! نفس الدفعة التي بدأت هذه الرحلة معًا منذ رياض الأطفال ها هم يخرجون الآن ويستعدون للمدرسة الإعدادية. سار البطل زين في بدلته الزرقاء المليئة بالحياة والسعادة.. ورأيت بطرف عيني كل الأهالي يهتفون باسمه ويصفقون له.. فقد عاشوا معنا الرحلة منذ اليوم الأول، وشهدوا عدد المرات التي قيل لنا أننا لن نرى هذا اليوم أبدا !

وقف الجميع والدموع تبرق في عيونهم، يحتفلون بأطفالهم، وبمعجزة الله في زين. عمت المشاعر المرتبكة المكان.. علما بأنه على وشك الذهاب إلى غرفة العمليات في غضون 48 ساعة .. كيف يمكن لشخص مليء بالحياة أن يجلس ويمشي ويبتسم في وجود ورم ضخم مثل هذا بداخل جسده؟! كيف يمكن أن يكون الورم مختفيًا بحيث لا تظهر عليه أي أعراض! سمعت كل هذه الأصوات في رأسي، بينما كنت أصوره وهو يلوح بيديه مملوءا بالحماس .

وجد مكانه على خشبة المسرح وسار بثقة إلى الميكروفون، وتكلم ليعلم الجميع دروسا في المثابرة والقدرة على التحمل :

"صباح الخير، أنا اسمي زين يوسف.. والنهاردة أنا مبسوط قوي عشان خلاص أنا داخل إعدادي.. مع إني زعلان إننا حنتفرق في مدارس مختلفة بس أنا عارف إننا حنفضل صحاب دايما ومتحمس للمرحلة الجديدة. أنا مريت بحاجات كتير وشفت حاجات كتير بس اتعلمت برضه حاجات كتير.. اتعلمت مستسلمش لأن ربنا دايما بيدينا القوة. بابا وماما علموني إننا كلنا بنتعب، بس الشخص اللي بيزق حتى وهو تعبان هو ده اللي بيشوف نتيجة وبيتقدم في حياته وأنا هنا عشان أقولكوا كلكو متقفوش .. زقوا واوعوا تستلموا ".

لا توجد كلمات تصف فخرنا وسعادتنا ورضانا بهذه اللحظة؛ "الحمد لله !"ربينا راجل؟ !" ممكن، لكن في كل الأحوال أشكرك يا رب على نعمة هذا اليوم وهذه اللحظة. احتوتنا مشاعر وأحاسيس فوق الخيال وكانت فكرة أننا في نفس اليوم وبعد هذه التجربة الجميلة مع زين.. كان يجب علينا التوجه للمستشفى لمقابلة الجراح ومناقشة تفاصيل العملية الكبرى رقم 45 بالنسبة لزين !

هناك مستوى من القدرات البشرية لتحمل المواقف الصعبة، وقد

وصلنا بالتأكيد إلى أقصى حد شعرنا أن بإمكاننا تحمله، وبينما جلسنا للتوقيع على جميع الأوراق التي تؤهلنا لما يمكن أن يحدث في غرفة الجراحة، شعرنا فجأة بالقوة التي دبت فينا صباح يوم التخرج تُنتزع منا بعنف وقسوة. اختفى شعورنا الغامر بالسعادة والفخر وتبدل لشعور من الرعب والخوف بعد سماع قائمة الآثار الجانبية والإعاقات التي يمكن أن يعيشها بعد العملية. إذ هناك طريقة واحدة جراحية لإزالة الورم، التي من المتوقع أن تسبب له إعاقة مستديمة. كانت اختياراتنا محدودة. هل نختار الحياة مع إعاقة.. أم الحياة نفسها؟

جاء اليوم الموعود.. منتصف الليل قبل ساعات قليلة من الجراحة. وصلنا البنات بأمان إلى منزل أصدقائنا، ووضعنا زين في فراشه وحقائبنا جاهزة لجولة أخرى من قتالنا في اليوم التالي. جلست على سجادة الصلاة صامتة وهادئة. أشعر أني يجب أن أتحدث مع الله، ولكني لم أعلم ماذا أقول! تعبت.. لم أستطع أن أصدق أنني هنا في نفس الوضع مرة أخرى بدلًا من أن أصلي وأشكر الله على نعمه.. ها أنا أترجاه أن يعطينا نفس النعم مرة أخرى بعد أن سُلبت منا مرارا وتكرارا .

لم أستطع أن أتجنب التفكير في قائمة الاحتمالات التي قالوا إنها قد تحدث في غرفة الجراحة في اليوم التالي، سجدت وتركت دموعي الصامتة تتحدث .

نظرت إلى أعلى وتحدثت إلى الله! قلت له : "يا رب أنا راضية وعمري ما سألتك ليه ولا اشمعنى إحنا.. مهما زاد الحمل وكتر الاختبار عمري ما حسألك ولا أشكك في حكمتك.. ولو سألت.. ده من ضعفي وقلة حيلتي.. من تعبي.. بس أنا طماعة يا رب.. أنا مش عايزة ابني يبدأ الصيف بكل المشاكل دي.. ولا يعيش بإعاقة بقية حياته.. ده شاف كتير.. أنا عايزة يبقى معجزتك في الأرض

يا رب.. وريهم قدرتك فيه.. وريهم إنهم يقولوا اللي يقولوه وإنت في الآخر حتقول كلمتك.. ولو قررت عكس اللي بطلبه منك، أنا برضه حرضى.. حزعل.. بس حرضى.. لو قررت إن الحِمل مش وقته يخف.. أنا حرضى.. بس إديني القوة إني أستحمل ".

جاء الفجر ليعلن أن الوقت قد حان.. وبدت الممرات البيضاء الطويلة مألوفة جدا مرة أخرى.. أخذوا زين وسجدنا نؤكد لله أن يديه قبل أيديهم بالداخل، وها نحن ننتظر حتى نسمع كلمته.. جلست أشغل نفسي

وأخبر الجميع بالجديد : "زين في العمليات .. ادعوا ".

كم مرة سأجلس هنا وأعيش نفس المشهد؟ لا أعلم .. ولكن من منا يعلم؟ !

سبتمبر 2018:

من الأشياء التي تعلمتها في رحلتنا هذه أننا قد لا نملك القدرة على رسم تفاصيل قصتنا، ولكن من المؤكد أنّنا نملك السيطرة الكاملة على كيفية سردها، ونقرر متى يمكن أن تكون النهاية والبداية. وعلى الرغم من أن رحلتنا مع السرطان قد لا تنتهي أبدًا، فإنني اخترت النظر إلى كل يوم كبداية جديدة .

اقتربت مني إحدى الأمهات تعانقني بابتسامة خجولة وقالت ببطء : "سمعت الخبر، مش مصدقة إنكو لسه حتعيدوا كل ده تاني.. سرطان للمرة الرابعة! بجد ربنا معاكو.. عايزاكي بس تعرفي إننا طول الصيف ومن ساعة ما سمعنا عن العملية بتاعته بندعيله جامد إنه يخف ويقوم بالسلامة.. مبسوطة قوي إنه مع الولاد النهاردة في المدرسة الجديدة ". لم أكن أريد أن يغيب زين عن عيني ثانية، لذلك ابتسمت واحتضنتها وقلت : "متشكرة قوي .. إن شاء الله كله بيعدي ". شعرت بها تمشي وهي لا تعرف ماذا تقول، ولكن لقاءنا المليء بالمشاعر والقليل من الكلام انتهى بسرعة وذهبت أبحث عن زين وسط مئات الطلبة .

اليوم هو أول يوم من العام الدراسي في المدرسة الإعدادية .. لم يكن يوما عاديا أو حتى مثل أي أول يوم لباقي الأهالي.. إنه أول يوم في أولى إعدادي.. اليوم الذي قيل لنا منذ ثلاثة شهور إننا يجب أن نستعد مع احتمالية أننا لن نراه.. إنه البداية بعد صيف آخر من العمليات الجراحية والنقاهة .

وجدته يمشي مسرعا وسط حشد من الأطفال يبحث عن أصدقائه، وقف وأدار رأسه ثم نظر إليّ وابتسم أكبر ابتسامة مشرقة تحت أشعة الشمس معلنا الصحة في وجنتيه. تكلمت أنا وتامر مع الله منذ شهور قليلة في ليلة العملية الجراحية، وقد رد علينا الله في هيئة معجزة أخرى.. ربما ليست معجزة كبيرة مثل تلك التي نحلم بها أو نراها في الأفلام .. ولكنها كانت سلسلة من المعجزات الصغيرة جاءت في هيئة صيف مُيسر وعملية جراحية ناجحة وكل ما طلبناه في سجودنا بالحرف الواحد .

لم يمنحنا الشفاء التام، ولم يغير كل شيء في يوم وليلة.. ولكن بدلًا من ذلك أظهر لنا عظمته بطريقة ثابتة وجميلة أوجدت الراحة لقلوبنا .

وقفت أنا وتامر نبكي بدموع الفرح من خلف نظاراتنا الشمسية.. لم تلتق أعيننا ولكن كل منا على علم كامل بما يدور بداخل الآخر.. التصقت كتفانا ببعض لنتماسك ولا نحرج الشاب الصغير وسط مجتمعه الجديد وعالمه الصغير .

نظر زين إلى الوراء ورفع يده اليمنى ليثبت لنا أنه يتذكر تمريناته الخاصة بذراعه الأيمن وقال بصوت عال : "مبسوط قوي يا ماما.. الجرس حيضرب إمتى بقا وابدأ؟ !". تسارعت خطواته وهو يبتعد عنا ويقترب من أصدقائه الجدد حتى اختفى عن النظر .

هذه ليست النهاية ولكنها البداية! بداية فصل جديد في قصة قررها الله ورسم تفاصيلها القدر، حقيقة نحن لا نعلم متى تكون النهاية أو ماذا ستكون.. ولكني متأكدة من حقيقة ثابتة.. أن كل لحظة هدية ونعمة.. وهذه الهدية هي مجرد البداية.. لرسالة أكبر منا .

(مش النهاية لكن البداية)